



محيي زلزلة أوبئة الشوق والحزن

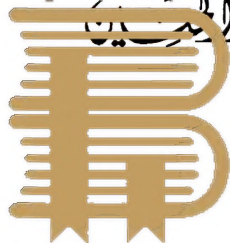
تأليف
عريد الشيخ

الأعلام من الأدياء والشعراء

محيي زريادة

شبكة كتب الشيعة

أدوية الشوق والحزن



shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

تأليف

عزید الشیخ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان

م.ب. : ٩٤٢٤/١١ - تلکس : Nasher 41245 Le

هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣

فاكس : ٤٧٨١٣٧٣ / ١٤١٤ - ٦٠٢١٣٣ / ٩٦١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

«أصبح أنك لم تهتدي بعد إلى صورتي فهاكها، استحضري فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندي، كما يقول الشعراء، أو كالمسك كما يقول متيم العامرية، وضعي عليها طابعاً مديماً - فليسمع لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض - من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي، وعطش روحي لا يرتوي يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور، واستعداد أكبر للشجن والألم - وهذا هو الغالب دوماً - وأطلقني على هذا المجموع اسم مي تري من يساجلك الساعة قلمها».

هذه هي مي زيادة كما وصفت نفسها بقلمها الرشيق باختصار شديد . . . مي التي عاشت عمرها وماتت وهي في شوق وحنين فكري لا ينتهيان .

في الناصرة وحيث عاش السيد المسيح حياته، ولدت مي زيادة أو ماري كما سماها أبواها عام ١٨٨٦ - لأب ماروني وأم أرثوذكسية، مما جعلها بعيدة عن أي تعصب لمذهب أو دين .

وانتقلت مي مع أسررتها إلى لبنان - قضاء كسروان وأدخلت مدرسة الراهبات الأجنبية بعينطورة، وتعلمت القليل من العربية والكثير من الفرنسية. وبدأت تنمو مواهب الفتاة الصغيرة التي شقت طريقها في البداية بحسن إلقائها وبراعتها في الإنشاء ثم ظهرت كخطيبة لبنانية ناشئة.. وأكملت مي تحصيلها العلمي واهتمامها بالتاريخ الإسلامي والفلسفة مما جعلها تحب الشرق حباً جمّاً على الرغم من ثقافتها الأوروبية الواسعة.

كانت مي زيادة ملفتة للنظر لكل من تقع عينه عليها من أصدقائها فكانوا يحتارون في وصفها فهي رغم الجمال الذي تحسه عندما تراها فإن هذا الجمال ليس هو المتعارف عليه بل هو أبعد وأعمق من هذا فهذه هدى شعراوي تصفها فتوجز ولكنها تعطينا المعنى الذي نحتاجه لنعرف شاعرتنا وأديبتنا.

«لم تكن مي على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها وروحها أجمل من صورتها، فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضعاف نصيباً من الجاذبية.

لقد كان يجمل مياً بين الجميلات ويزينها بينهن شيء خفي، وسر مستبهم، لعله هو الذي حير الشاعر فقال:

شيء به فتن الوري غير أنه

يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سر مستغلق ولا خفي مبهم فسر جمال مي كان في روحها، والجمال المعنوي الروحي هو ضرب من الجمال

يسمو على كل جمال»^(١) .

وكان أكثر ما يلفت من مي زيادة هو إحساسك بهذا الذكاء المتوقد المشع دائماً من عينيها ومن حسن تصرفها ولباقتها المعهودة: تقول صديقتها أيمن خير: «كانت كل حاسة من حواسها، أو جارحة من جوارحها تنم عن ذلك الذكاء، فعيناها اللامعتان، وتعبيرها الحار ولطف إشارتها وحسن حديثها كل أولئك نم عن ذكائها كما ينم ريح المسك على المسك. تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها وتنقلك إلى صفها ولو كنت من المحلفين في الخصومة، الممعنين في المجادلة والمعارضة وكان فيها إلى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواش رقيقة من اللطف والدعة واللين والركة، فكانت تحترم أمها وأباها، وتقف أمامهما كما يقف الطفل في حضرة والديه»^(٢) .

والشاعر المهجري شفيق المعلوف يصورها بقوله:

بنت الجبال، ربيبة الهرم
هيهات يجهل اسمها حي
لم نلف سحراً سال من قلم
إلا هتفنا: هذه مي

وها هو الدكتور منصور فهمي يصورها بصورة دقيقة في محاضرة له عنها بمعهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٤ فيقول:

«... فهي فتاة ربعة بعنة، وجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة،

(١) مي أدبية الشرق والعروبة / محمد حسن.

(٢) مي أدبية الشرق والعروبة / محمد حسن.

وبشرتها بيضاء من غير سوء، وتقاسيمها مليحة مشرقة، وعيناها دعجاوان واسعتان سبلاوان، يشع فيهما بريق الذكاء ويعلوها حاجبان يمتد كلاهما عريضاً أسود من أول العين إلى آخرها في تقوس منسجم دون أن يقتربا أو يتقاربا من أعلى أنف أزلف جميل وفمها يزدان بشفتين رقيقتين قرمزيتين لا يمتدن في خديها الريانين إلا بما يتجاوز قليلاً نهاية الأنف. وهي ذات جيد مليء لا يعيبه قصر، وقد يزينه عقد قاني الحمرة إن لبست ثياباً قاتمة اللون. وأسنانها بيضاء فيها فلج، وفي الغالب لا تفارق الابتسامة محياها. وشعرها أسود فاحم لامع. وقد تقتزن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها وجيدها فتبدو هذه الحركات خفيفة كأنها نبرات من الضحك الهاديء ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة تزيدها ظرفاً وتكسيها لعوية وسحراً^(١).

وقد كتب عنها سلامة موسى يوم لم تكن بعد في ذروة شهرتها:

«مي أدبية سورية المولد مصرية النشأة والتربية عربية الوطن، تكتب للشرق بعقلها، وللغرب مكان في قلبها. ومركز مي في الأدب العربي فريد في وقتنا الحاضر فهي امرأة تكتب لرجال. وليس معنى هذا أن النساء لا يقرأن مؤلفاتها، فربما هن لا يعرفن كاتبة أكثر منها، ولكن جمهور النساء القارئات عندنا.. قليل جداً، فكثرة قرائها إذن من الرجال».

ويصل سلامة موسى إلى شخصية مي فيقول:

«... ففي مي شيء كبير من عمق الإحساس وبسطته، فهي تفهم

(١) مي أدبية الشرق والعروبة / محمد حسن.

بنبوغها عقلية الرجال، كما تفهم بطبعها عقلية النساء، ومن هنا ندرك اهتمامها بجملة موضوعات أدبية واجتماعية.. أما عن ترقيتها نفسها فلست أعرف أديباً يعنى بذلك بمقدار عنايتها.. ولمى في الأدب العربي ثلاث شخصيات كل واحدة منها جديرة بالدرس فهي شاعرة قد ألّفت الشعر باللغة الفرنسية، ثم هي خطيبة، تعرف كيف توقع على أوتار الجمهور المستمع لها وكيف تؤثر فيه وتصل إلى مكمن العاطفة فيه ثم هي أيضاً كاتبة اجتماعية، وهذا الطور هو آخر أطوارها.. وربما كان الميل للخيال والتعلق بالفن والمثل العليا أقوى فيها من الميل إلى درس الاجتماع.. وهي في آرائها الاجتماعية معتدلة لا تقول بالطفرة^(١).

(١) الهلال الجزء السابع، نيسان ١٩٢٤ / الأنسة مي بقلم سلامة موسى صفحة ٧٤٧.

مزاج كنيب

في الناصرة، في ذلك الجو الطبيعي المشبع بالتاريخ وأحداثه الأليمة وصوره التي تبعث على التأمل وتوحي بالاعتبار أكثر مما تسوق إلى الابتهاج والانشراح والإقبال على الحياة، تكوّن مزاج مي وستظل الناصرة بكل ما تمثل قائمة في ذهن الفتاة: «إيه يا ناصرة! لن أنساك ما دمتُ حيةً، سأعيش دواماً تلك الهنياه العذبة التي قضيتها في كنف منازل الصامته وسأحفظ في نفسي الفتية ذكرى هتافات قلبي وخلجات أعماقي، لقد كنت لي مدينة الأزاهر العذبة وجمال التنعم بأطايب الأوقات في وجودي»^(١).

ولعل مكان تفتح الوعي عندها والظروف التي كانت تمر بها البلاد قد جعل الحزن والألم هما اللذان يسيطران على كتاباتها الأولى فتخرج على الدنيا في أول أثر أدبي أعطته وهو «أزاهير حلم»: كتيبة، مفردة

(١) مذكرات مي / ص ٢٣.

هاربة تقول:

«دعوني أياماً فإني لا أود أن أسمع إلا الحفيف
الخفيف، الموسيقى، الحنون الذي تتنفس به هذه
الجبال ألا أبعادوا عني، ولو حيناً، أصوات البشر التي
تبتطن الحسد والحقد والغل»^(١).

(وقد جاءت كآبة مي من كثرة تطلعها الدائم إلى كشف أسرار
المجهول: فهي حين لا تظفر بجواب مقنع شاف عن سر المتناقضات
في الحياة وعن سر اللذة والألم لا تجد لها سلوة إلا في الاكتئاب وكأنها
تجد الخلاص من الداء بالداء)^(٢).

من مقدمة كتاب «ابتسامات ودموع»:

«كنت كئيبة، كنت أكتب لغير سبب، وأكتب للعوامل الدافعة
بالاجتماع الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً حتى إذا احتमित بحمي الطبيعة
وألقيت عليها انكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالي. الكآبة خاتمة
شعور الإنسان إزاء الجمال والقباحة، والخير والشر والعدل والظلم،
والكره والحب والفوز والخذلان، إليها تنتهي حركات التأثر في جميع
خطائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام
الدامس. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم، وبعجزه
عن تحويل الأشياء عن مجراها؟.. قد يكون، ولكن الواقع أن التثهد
والامثال نهاية كل عاطفة وكل فكر كما أن كل عمر بشري يختم بإرسال
الزفرة وإسبال الجنون».. وعندما يأتي المساء وتبدأ الشمس

(١) أزامير حلم.

(٢) مي أدبية الشرق والعروبة / محمد حسن.

بالانسحاب ليحل محلها الظلام تبدأ الكتابة بالتسلل إلى قلب مي زيادة :

«أرعى الشغف سدوله على الأرض بطيناً ولفقت حواشي السحب
بخيوط الذهب والفضة وتلاشى ما كان يبدو كبحيرات الياقوت، وبرك
الزمرد حيال عرش الغروب، وغشت الأرض كآبة رداء، وغشت عينيك
كآبة رداء، أي شمس تغيب فيك - أيتها الفتاة - ولماذا يشجيك المساء
لتغشي عينيك هذه الكتابة الرداء؟ ألا احرصى على قلبك أيتها الفتاة» .

إن الحزن الدائم يدفعها إلى ذرف الدموع الغزيرة المدرارة
فدموعها لا تجف ولا تنضب فتسأل الله عن سر الدموع ولماذا كتب على
الإنسان أن تدمع عيونه دائماً إنها تناجيه بصوت عالٍ وتسترحمه الغفران
لكل الضغفاء فإنه القوي والقادر على إبعاد الشقاء والعذاب عن الإنسان
الضعيف :

«حزينة اليوم روعي، وحزنها القاتم مؤلمي

فعلام الاكتئاب؟

أيها الإله!

لماذا وضعت في عيني الإنسان هذه العبرات

لماذا؟ ..

أية مسرة أنت ملاقي في النكال والإيلام؟

إنك القادر ونحن ضعاف

إنك العظيم ونحن بائسون؟

نحن أشرار وأنت كل الصلاح .

أما كان الغفران أجدر بعظمتك؟ ..

أو ما كان تلاشنا أوفق لرحيب قدرتك؟!

ولكنك لم تفعل هذا ولا ذاك، ونحن نشقى ونتعذب

نفسى اليوم حزينه وحزنها قاتم.. أفكر

في الأوراق المتناثرة وفي الأحباء الذين يضحكونها،
وفي الموتى الذين مضوا كأنهم لم يكونوا».

وقد كانت مي صلبة أمام الآلام متحملة للمصائب والهموم..
فهي كما قالت عنها هدى شعراوي: «فذة في أحزانها، غريبة في
همومها وآلامها، كما كانت فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها».

وهي دائماً تمجد النفوس الكبيرة الصابرة على الألم المتحملة
للمصائب:

«ما أشرفك أيتها الأنفس التي تجردت من الثروة!
وأنت أيتها الأنفس المتجبرة التي لا تحطمها أحداد
الدهر!

وما أسمى شموخ الأنف الذي لا يذله الفقر!
وما أنبل القلوب الشهمة التي تثقلها الآلام ولا
تخنق».

ثم تفكر مي بالموت وكأنه الرجاء والمخلص إنه الشوق الدائم
عندها.

«أشتاق إلى الموت في هذه الأيام. ذلك لأنني لا أفهم
الحياة التي يقول مرشدنا الروحي: إنها مشكلة
المشاكل...».

مي والطبيعة

إنها ابنة الطبيعة الوفية وعاشتقتها المخلصة المشتاقة دائماً. لقد أحببت كل ما في الطبيعة، أحببت وديانها وجبالها، بحرها وسهلها، غاباتها المتشابكة أو صحرائها الممتدة.. أحببت الزهور وعيبرها.. العصافير وغريدها، حتى صرير جندب أو طنين نحلة كان يطربها: في قصيدتها الفرنسية «دعوني» من ديوانها «أزاهير حلم» نرى حبها اللامتناهي للطبيعة فهي لا تريد من دنياها إلا أن تنعم لأيام بالرقاد تنصت السمع لحفيف (الموسيقى الحنون الذي تتنفس به الجبال).. إنها تريد البعد عن الناس لأن الحب يحلو في أحضان الطبيعة الخلابة:

«دعوني في هذا الملجأ الساحر، دعوني وحيدة

أحيا مطمئنة بعيدة عن ضوضاء المدن

دعوا لأنظاري تلك الرؤى العذبة

دعوا لأفكاري أحلامها الرخية

دعوني أنعم بالرقاد

دعوني أيا ما فإني لا أود أن أسمع

إلا الحفيف الخفيف الموسيقي الحنون

الذي تنفس به هذه الجبال
ألا أبعدوا عني - ولو حيناً - أصوات البشر
التي تبطن الحسد والحقد والغل
هنا يطيب لنا الحب .



أجل : يطيب لنا الحب بين الأشجار المنعزلة
والخرائب البائدة ، وما حملت من أخبار الزمان
وهذه الصخرة الكثيرة
كل ما في هذه الربوع يجذبني ويسحرني
الأوراق التي أحسها تنبض ، والعصافير التي تغرد
كلما رأني أدنو . .

لطالما أحبت الطبيعة وأرادت أن تنقل لكل إنسان هذا الإحساس
الأزلي بالجمال

«والجبال التي تحيط بنا ، والأشجار التي تفيثنا ظلالها
الوارفة والمياه المترنمة عند أقدامنا ، والعصافير
المعزقة الطروب ، كل منها يترك في نفوسنا أثراً بليغاً
خاصاً لا يقوى على محوه الزمان» .

إنها لوحات شعرية رائعة الجمال مناسبة بهدوء مريح للنفس
والأعصاب تلك اللوحات التي ترسمها لنا مي زيادة بقلمها الرشيق الذي
يجسد كل حركة أو سكون من سكنات الطبيعة الخلابة الموحية دائماً :

«في سديم ضباب الصباح الفضي ترسم الجبال فيشير
التلفظ باسمها شعوراً مؤلماً في النفس ، . .

تلك هي جبال لبنان! ..

عصبت هامتها أكاليل من المرجان، وغمرت أعماق
أوديتها الظلال ..

الشمس تتيه عجباً بأذيالها الذهبية تجرها على
الكائنات وتسبغ على الصخور والجبال الخضراء
والمنازل الشاحبة من كرور الزمان ألواناً فتانة،
ينعكس النور عليها فتبدو كالزمرد والياقوت،
ويلتحف البحر والجو والهواء بفيض من الضياء! ..
إنه مشهد يفوق الوصف

أين قلم لامارتين السحري ليعبر عن هذا الجمال؟ ..
ومن يستطيع سوى شاعر البحيرة أن يعبر عن سحر
الطبيعة الفتان؟ ..

إن طبيعتها التي تجعلها تميل إلى الوحدة والعزلة بنفسها عن
الناس جعلتها تلجأ إلى الطبيعة فتحس فيها بالأنس وبأنها الملجأ
الآخر .. فكانت تجد حتى في أصغر الأشياء سلوى لها.

«أحب أن أحلم منفردة تحت السماء الساكنة الصافية
أحب عذ الحصى التي تظوها قدماي وأزاهير الحقل
التي أصادفها على الطرقات ..

إني لأجد عذوبة أن أتيه في الغابات عندما يغشى
الفسق الوادي وأن أسمع همس الآلهة مرنمة حول
الينبوع».

ويتحول هذا الحب إلى (عبادة حارة خاشعة) فكان الامتنان
والشكر دائماً للحياة التي مُنحتها وللطبيعة التي عاشت بين أحضانها

ولكل الموجودات التي خلقها الله :

«وكم خلت القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيلاً أثيراً
منبعثاً من البحر والجبال والكائنات جميعاً، وكم
عبدت الطبيعة عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين
والشعراء والمتميمين، أولئك الذين يقدمون الحياة
خارجاً عن أشخاصهم ومحصورة في إله أو رمز أو
إنسان. وكم ملأت الدموع عيني شكراً للحياة، شكراً
للطبيعة، شكراً لجميع الموجودات».

إن هذا الاتجاه التأملي - أي النظرة العميقة إلى الأشياء والتساؤل
عن معانيها وأسرارها، ومحاولة النفوذ إلى ما وراء الظاهر، يجعلها لا
تكتفي بوصف مفاتن الطبيعة، بل نصف كذلك انعكاساتها في نفسها،
وتلقي عليها ظلالاً من عواطفها وتصوّراتها. ففي الغابات تسمع همس
الآلهة مرثمة بجانب ينبوع، وحفيف أجنحة الأرواح مرفرفة حولها. .
تنخيل الأمطار عبرات يسكبها سكان الكواكب المتلألئة. في الرقيق،
وأشجار السنديان الشامخة تبسم حانية على الأزهار الصغيرة البرية
فتسمح لها بالنمو في ظلالها.

إذا نظرت إلى الجبال، جسدت فيها ذاتها فبدت لها حالمة
مثلها، تحلم بالزرقة البعيدة، وبأعماق الأنوار الغامضة وبخفايا القبور
المبهمه.

وإذا نظرت إلى أوراق الخريف المتهاوية، خُيِّلَ لها أنها سمنت
أسر الالتصاق بالشجرة التي أنالتها الحياة، وحركها الشوق إلى الحرية
والانعتاق. فأخذت تترنح في الهواء مغتبطة بحريتها. ولكن سرعان ما

هبطت إلى الأرض حيث داسنها الأقدام وحيث ينتظرها التحللُ
والاضمحلال، فكانت الخيبة جزاء سعيها والموت ثمن حرّيتها^(١).

(١) مي زيادة / روز الغريب.

مع النهضة النسائية

إلى جانب النشاط الصحفي والأدبي الذي كانت تقوم مي زيادة به، من كتابة المقالات والترجمة والتأليف.. فقد كانت تشارك في الحركة النسائية على جميع جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية.. وقد أعجبت مي زيادة بالكاتبة الكبيرة باحثة البادية (الكاتبة ملك حفني) وتبادلت معها الكثير من الرسائل وتعرّفت بها وارتبطتا بصداقة متينة.

وقد بدأت منذ عام ١٩١٢ بنشاطها الفعلي لتحرير المرأة العربية وقد لقيت الكثير من التشجيع في مختلف الأوساط المصرية الراقية واللبنانية على السواء، وقد كان العصر في ذلك الوقت كله يتجه إلى تحرير المرأة وقد عجل اندلاع الحرب العالمية الأولى بيقظة العالم على الروح النسوي والإفادة من هذا الروح في تركيز قواعد السلام، ونشر معاني الرفق والمحبة في المدارس والمعامل والمتاجر فضلاً عن المنازل.

وفي محاضرة «المرأة والتمدن» التي دعا إليها النادي الشرقي

خلال نيسان عام ١٩١٤ ما يضع ذلك موضع اليقين إذ قررت أن: «المدنية لم تقم بتمام واجبها بعد، ولم تصلح من الأحوال إلا البعض اليسير وأنتم تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة. ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلا تقهقر نصف الإنسانية هو جهل المرأة»^(١).

وهكذا تحولت مي من قوقعة نفسها وأحلامها وعواطفها الخاصة إلى معانقة الروح الإنساني في شخص المرأة.

وقد مشت مي زيادة هي نفسها في طريق الخدمة الذاتية لقضية المرأة والنهضة النسوية فبنت نفسها بناءً صحيحاً ينسجم مع المهمة التي انتدبتها لنفسها من تحرير المرأة فدرست أمهات الملفات وجعلت من نفسها قدوة ومثلاً واضحاً في العمل والجهد من أجل الهدف السامي وركزت مقالاتها وخطاباتها في هذه القضية ونصرتها ولم تتوانى لحظة عن تقديم المساعدات والنصائح لكل سيدات المجتمع. ثم من أهم ما قامت به هو متداها الأدبي أو (صالونها) الذي أنشأته في منزلها وكان ملتقى للكثير من رجال الفكر والأدب في القاهرة.

ومن أهم ما كتبت مي زيادة هو الرسالة التربوية التي توجهت بها إلى البنات المصريات لتنشر في كتاب مدرسي بعنوان «محفوظات البنات» ثم نشرتها في كتابها «بين الجزر والمد»:

وتخاطب مي في هذه الرسالة الفتاة المصرية الصغيرة موجهة إليها النصائح والتوجيهات قائلة:

(١) «كلمات وإشارات» تأليف مي زيادة.

«الحياة أمامك، أيتها المصرية الصغيرة، ولك أن تكوني فيها ملكة أو عبدة:

عبدة بالكليل، والتواكل والغضب والثروة،
والاغتياث والتطفل، والتبذل، وملكة بالاجتهاد
والترتيب، وحفظ اللسان، والصدق، وطهارة القلب
والفكر، والعفاف، والعمل المتواصل،

فإن عشت عبدة بأخلاقك كنت حملاً ثقيلاً على ذوك
فكرهوك ونبذوك، وإذا عشت ملكة أفدت أهلك
ووطنك وكنت محبوبة مباركة فأيهما تختارين؟.

إذا اخترت الملك فروضي نفسك على المكارم منذ
الساعة لأن الملوك يسلكون طريق العز منذ الصغر».

وهكذا نجد أنه لا يمكن أن تذكر النهضة النسائية في الشرق
العربي، إلا ويتسابق إلى الأذهان اسم مي الأدبية الموهوبة التي ساهمت
ولفترة طويلة في طريق الحق على التحرر والمساهمة في بناء المجتمع
العربي الذي يجب أن تكون المرأة هي المساهمة الأولى والأهم في
طريق التحرر. فكانت دعوة مي للمرأة هي درس وضعها وبيتها
وطبيعتها، فأوضحت موجباتها، وأيدت حقوقها واتخذت من باحثة
البادية، مثلاً أعلى للجهاد النسائي. وباحثة البادية (١٨٨٦ - ١٩١٨)
هي الأدبية المصرية التي لم يتح لها ما أتيح لمي، من غذاء ثقافي
عالمي، ولم تحدث في الأدب العربي ما أحدثته مي، لكنها اتجهت إلى
ميدان آخر بحكم ظروفها الخاصة، فخاضت بقلمها معركة تحرير
المرأة.

أما نجاح مي في مهنتها الكتابية فهو دليل على نجاحها في إثبات

ذاتها، وإرضاء طموحها، والتغلب على تقاليد البيئة التي رأت في المرأة مخلوقاً عاجزاً، فكان نجاحها فوزاً للقضية النسائية التي كافحت في سبيلها كما كان انتصاراً للقيم والمبادئ التي أحبتها وأمنت بها.

وفي حديث لمي زيادة مع العقاد، ناقشت فيه وإياه موضوع الديمقراطية أشارت إلى حق المرأة في الانتخاب، وكان حينذاك من الموضوعات الحرام في المجالس وفي الصحف. ولكن العقاد ينكر على المرأة هذا الحق بحجة أنها بفطرتها «غير ديمقراطية» إذا ذهبت إلى صندوق الاقتراع، تقتصر للمرشح الذي يملك سيارة مفضلة إياه على المرشح الذي يسير ماشياً على قدميه. غير أن مي تصرّ على الدفاع عن حقوق المرأة وتقول: «إذا ثبت أنها تفضل صاحب السيارة، فلا بد أن تكون لها مبرراتها في هذا التفضيل»^(١).

هكذا نرى أن آراء مي في المرأة رغم تقدميتها متأرجحة، تميل إلى مراعاة مستوى البيئة التي لم تكن حينذاك مستعدة لقبول التطوير الجذري في هذا الموضوع، والتي رمت قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الإثم الفظيع الذي يدعى المناداة بإصلاح المرأة.

ولم تخرج فيما كانت تردد على المنابر في هذه الجمعيات عن موضوع النهضة النسائية وأن الحضارة الحاضرة تبدو عرجاء لأنها تتكىء على جنس واحد، وأن موجة النور الصاعدة، نور الوحي، النسائي تزداد ارتفاعاً واتساعاً لتأخذ المرأة مكانها في هذه الحضارة.

وكتابتها «كلمات وإشارات» يعد فتحاً نسائياً في أدبنا الحديث بما

(١) مي أدبية الشرق والعروبة.

ضمّ من الخطب القيمة .

ومي من أوائل النساء العربيات اللواتي أدركن أن المرأة لا يفهمها إلا المرأة وأن علل النساء لا يعرفها إلا امرأة مثلهن لأنها أدري بعلة أختها وبنت جنسها، وأن للرجل ميدانه الذي لا يجوز أن يتخطاه إلى ميادين النساء .

ولها في ذلك عبارات حكيمة واعية، منها عبارتها إلى باحثة البادية تقول :

«تتوالى الأيام ونحن في ضلال مبين، الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد الدائمة. الرجل تائه في مهامه الأشغال، فإذا كتب بحث في العموميات، وإذا جال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائي لأنه يكتب بفكره، بأفكاره، بقساوته والمرأة تحيا بقلبها، بعواطفها، بحبها، علاناً مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها، والمرأة بعلّة جنسها أدري، فهي تستطيع معالجتها ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال المخيم بطلانه على منابت العواطف المخصصة .

هذا اعتراف ساذج صادق، الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية، وإن لم ير فيها من الاستفهام شيئاً، ولكن الزوجة والأم التي أعطيت ذكاء وفطنة، وعلماً وشعوراً قوياً، تدرك بواسطته كل

ما في الحياة من حلاوة ومرارة، تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة، شخصية المرأة، وشخصية الرجل»^(١).

ورغم أن مي نادت المرأة لتقوم بواجبها في المجتمع ولكنها في الوقت نفسه دعتها أن لا تتخلى عن أنوثتها بل على العكس أن تغذي هذه الأنوثة وتبلورها، لقد رددت دائماً:

«إن أكبر فخر للرجل وأعظم عنوان لمجده إنما هو كمال رجولته، الرجل الناقص الرجولة لا يغني عنه علمه ولا ماله، بل يظل ناقصاً أبداً، فأما من كملت رجولته، فقدير على أن يستكمل بفضلها ما ينقصه من الناحية التي ينبغي الكمال فيها. ذلك حق نقره جميعاً، فمالنا لا نقر الحق الذي يقابله فنقول:

إن أكبر فخر للمرأة، وأعظم عنوان لمجدها، إنما هو كمال أنوثتها. وإنها بكمال أنوثتها تستطيع أن تكمل ما ينقصها في الناحية التي ينبغي الكمال فيها. وكما أن الرجولة قوة ونضال وحرص على الظفر، فالأنوثة عطف وحنان ومحبة»^(٢).

(١) رسالة «مي» إلى باحثة البادية سنة ١٩٠٢ في كتاب رسائل مي.

(٢) خطاب مي لباحثة البادية.

مي والروح الشرقية عندها

كانت مي معتزة بعروبيتها فخورة بها لم تحاول تقليد الغربيين . الفكرة الشرقية عندها عالية ورسوم العقيدة القومية . . وهي وإن كانت تدعو إلى مجارة الغرب في ميدان الحياة والنشاط والكفاح والنضال ولكنها لا تنسى شخصية الماضي في الشرق ولا تنسى مثله العالية ، ولا تنسى طهارة أرضه التي شرفتها الرسائل ، ولا قدسية سمائه التي نزلت منها النبوات .

من كتابها «بين المد والجزر» نقول :

«عندنا عادات جميلة ووراثة أثيرة تحسن المحافظة عليها غير أنها لا تكفي . ليتغنى بها الشعراء ولينشدوا المنشدون ولينح عليها محبو الدب والنواح . . ولكن من الحياة وراءنا ، واقتباس المحتوم لا يفض من كرامة الأمم لأنها مركبة من روح وجسد فشعرها وفلسفتها وفنونها وإلهياتها وأديانها وتذاراتها الثمينة كل هذا بمثابة غذاء الروح . أما الحياة المدنية

منها الحياة المحسوسة فلها أساليبها الآلية والمالية والاقتصادية والاجتماعية» .

لقد حافظت مي على الروح الشرقية عندها رغم اطلاعها الواسع على الآداب الغربية فهي إنما درست أدب الغرب لتتعرف عليه وتستوحي منه لا لتقتبس:

«لقد أعطى الشرق للغرب أدياناً وأخلاقاً وفلسفة إلهية وأنبياء وإلهاً فتلقاها الغرب شاكراً وارتقى بها، أفيخجلنا أن نتفع باختبارات الدنيوية وعلمه، والدنيا دنيا الجميع كما أن الله خالق الجميع» .

إنها الدعوة إلى الأخذ بعلوم الغرب وأفكاره فما ضرَّ لو فعلنا ونحن نعلم أن كل ما لديه من علوم دينية ودنيوية إنما أصله شرقي وعربي، فلعل باستطاعتنا أن نستفيد من هذه العلوم .

وكان تعرفها إلى كبير مفكري مصر ومعلم جيلها أحمد لطفي السيد قد جعلها تتحول في تحصيلها وثقافتها الفرنسية إلى العربية وبيانها لتحسن التعبير فيها والنبوغ .

وقد دلها على الطريق وأخذ بيدها، فتعمقت فيما أراد لها من دراسة جديدة، وكان ينشئ «الجريدة» مدرسة الرعيل الأول من المفكرين والأدباء المصريين، فتابعت خطاها وآراءها وتأثرت بدعوة المعلم الوقور «مصر للمصريين» وكانت هذه الدعوة الهادفة من أصدق ما تردد في مصر بين مختلف الدعوات الفكرية والإصلاحية، إذ كانت نكبات الحرب الأولى ومغانم الحلفاء فيما تقاسموا من البلاد المغلوبة على أمرها حافزاً للشعور العربي بالذات، والشخصية، والحقوق المغتصبة ظلماً وزوراً، فشاعت الدعوات للقومية والوطنية، وما كادت

ثورة مصر (١٩١٩) تندلع بغضبها على الاستعمار وتستجيب بأهدافها لرأي معلمها أحمد لطفي السيد، حتى كانت مي من دعاة النزعة الوطنية والثورية، فنشرت المقالات الجريئة حولها. وسميت أيام الثورة بالأيام العصية.

وقد تأثرت مي بمنازع معلمها وأصدقائها من أحرار الكتاب والخطباء، فأخذت تخاطب الجمهور وتتجاوب مع المظاهرات الشعبية لسيادة مصر وحريتها، ولا تحجم عن تأييد الدعوة لتحرير المرأة العربية بتعليمها وإنصافها.

وكان الاتجاه القومي بمصر يتمثل في الحفاظ على مقومات الحياة، بالشخصية الإقليمية، وتراث الحضارة والعقيدة. فلا يستأثر بخيرات بلادها غربي ولا غريب فكان المصري الواعي يتلمس حريته وحقيقته في كل نقمة على الحكام وفي كل محنة وطنية حتى برزت مدلولات الأهداف التي دعا لها أحمد لطفي السيد وصحبه، فرأتها مي بشائر للتحرر من كل سيطرة سياسية واقتصادية^(١).

وقد تركت الحركات الوطنية في مختلف الأقطار العربية ضد الاستعمار في نفسها وأدبها أثراً عميقاً، ولقد اعترفت بأن هذه الحركات قد جعلتها تشعر أن كل بلد شرقي وطن لها محاولة جمع الشمل والكلمة عند العرب.

وبذلك أخذت تنهمر كتاباتها في الصحف المصرية وتتدفق خطبها

(١) مي زيادة في حياتها وآثارها / وداد السكاكيني.

على المنابر، وتتوالى كتبها في سوق الأدب مترجمة مرة، ومؤلفة مرة أخرى، حتى غدت نهضة الفكر العربي والنهضة النسائية، مدى ربع قرن.

نشاط اجتماعي «ندوة مي زيادة الأدبية»

اتخذت مي من منزلها في كل يوم ثلاثاء ندوة أدبية يؤمها الأصدقاء وأعلام الفكر والأدب.. وبذلك أعادت إلى الحياة الأدبية في مصر صالونات الأوانس والسيدات اللواتي كان لهن الفضل في إحياء الثقافة ونشرها في المجتمع الفرنسي عهد لويس الرابع عشر ومن تلاه من ملوك فرنسا..

فتحول المجلس إلى سوق عكاظ وتروج المباحث العلمية والفلسفية والأدبية..

فرواد المنتدى كانوا ينتمون إلى طبقات اجتماعية مرموقة، ولكل منهم شخصيته اللامعة البارزة في حقل أو ميدان من ميادين الحياة الفكرية (يعقوب صروف، عباس العقاد، أنطوان الجميل، منصور فهمي، أحمد شوقي ومصطفى الرافعي وولي الدين يكن وغيرهم كثيرون)...

وجادت قريحة رواد النادي من الشعراء بقصائد تناقلتها الأقطار
العربية يومذاك، منها ما قاله الشاعر إسماعيل صبري في رسالة لمي،
وقد اضطر للغياب مرة، فكتب إليها شعراً يعتذر:

روحي على بعض دور الحي حائمة
كظاميء الطير حواماً على الماء
إن لم أمتع بمي ناظري غداً
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء
أو تلك الأبيات التي يترجم فيها أحمد شوقي انطباعاته عن مي
في صالونها:

أسائل خاطري عما سباني
أحسنُ الخلق أم حسنُ البيان؟
رأيت تنافس الحسين فيها
كأنها لمية عاشقان
إذا نطق صبا عقلي إليها
وإن بسمت إلي صبا جناني
وما أدري أتسم عن حين
إلي بقلبها أم عن حنان
أم أن شبابه راثٍ لشيبي
وما أوهى زماني من كياني
وكانت الأحاديث التي تدور في الندوة تتعلق بمواضيع كثيرة
ومتنوعة وبمختلف الألسنة.

ولم يكن الأدب وحده الذي كان يشد مياً إلى الحياة الاجتماعية

بل كانت تولي الموسيقى اهتماماً خاصاً فقد عرف عنها أنها كانت تتقن العزف على العود والبيانو فكانت في صالونها تعزف بعض الألحان وتغني أغنيات لبنانية منها «يا حنينة».

وكانت مي تتولى إدارة الحديث ببراعة فذة ويلبقة الواثق بنفسه متصرفاً في شؤون الفكر تصرفاً حاذقاً، يزينها تهذيب جَم وتواضع كبير، فتعقد المشادات الذهنية على بساط البحث الحر وتزيد ترابط الأدباء بما تحرص عليه من حفظ قدر كل منهم. ولعل خير دليل على براعتها النادرة في هذا النطاق، إدارتها المجمع يوم انعقد للتشاور في الاحتفال بعيد (المقتطف) الخمسيني، وقد حضره نحو ثلاثين كاتباً ووزيراً، ووجيهاً، فرقت بين أكثرهم المنازعات السياسية إلى حد التقاطع والعداء. ففضى الجميع عندها على حد قول العقاد، ساعتين نسوا خلالها أن في البلد أحزاباً ومنازعات سياسية.

وكان حديث مي في الغالب باللغة العربية الفصحى التي تصل إلى جعلها لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل شاهده من أنصار العربية الفصحى، من غير أن يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة أو أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية، أو المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية.

وتعد ندوة مي كعبة للفكر العربي، في حقبة من الزمن كانت الحاجة فيه ماسة إلى تقرير مصير الاتجاهات الأدبية والفكرية. وعملت في البحث عن أسلوب عربي جديد، يقع في الوسط بين الأسلوب القديم واللغة العامية لأن مي جعلت الحديث والتحاور في الندوة باللغة العربية الفصحى البسيطة والتي كان يشوبها التكلف والتصنع.

كذلك أسهمت الندوة في التقارب بين الثقافتين الشرقية والغربية،

فكانت اللغات الأجنبية كالفرنسية والانكليزية لها منزلة فيها.

وكان الأدباء يطالعون ويدرسون، وينقدون نماذج من الأدب الأجنبي شعراً أو نثراً، فأسهم هذا في تطعيم الأدب العربي بالآداب الأجنبية محاولاً الإفلات من القيود القديمة والسير في ركب الأدب الإنساني الصرف الحديث.

وكان من أهداف الندوة أيضاً، كونها بادرة طيبة في سبيل غد زاهر يفتح أمام المرأة العربية باب الحياة الاجتماعية على مصراعيه ونرى هذا في أناقة مي وفي احترامها نفسها والآخرين، فكانها بذلك كانت تريد أن تكون قدوة ونموذجاً حياً لمستقبل المرأة الشرقية.

ولقد كان لها من الأثر في العصر الحديث مثل ما كان لندوة سكيّنة بنت الحسين، من أثر توجيه الذوق الأدبي.

وكما لفتت سكيّنة أنظار الناس وإعجابهم لفتت مي أنظار أبناء جيلها.

وهذه الندوة، احتفظت بأجمل المطارحات الأدبية والأحاديث التي خلدت أصحابها، وبنت لغيرها أدباً وعلماً أضاء الطريق وأحيا التراث وشجع الباحثين والمؤلفين على مساهمة التطور، والتحرر من القيود والجمود، وطالت أعوام الندوة زهاء عشرين عاماً^(١).

وكان فقدان هذا المنتدى وصاحبه، فجعة أحس بها كل رواده وعارفو فضله، وقد أجاد خليل مطران وصفه ووصف فجيعته حين قال:

(١) مي زيادة في حياتها وآثارها. وداد السكاكيني.

أفقر البيت أين ناديك يا صفوة المشرقين نبلاً وفضلاً
مي إليه الوفود يختلفونا فتساق البحوث فيه ضرورياً
في ذراك الرحيب يعتمرونا وتصيب القلوب وهي غرات
ويدار الحديث فيه شجوناً من ثمار العقول ما يشتهينا

مي والنهضة الفنية

ظهرت روح مي الشرقية أيضاً عندما قارنت بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية، فبينت لنا أن الموسيقى الغربية بحاجة لدرس واطلاع حتى نتذوقها ونفهمها، وأن الموسيقى الشرقية يتجسم فيها دون غيرها، معنى الامتثال اليانس والصبر المبرير.

تمنت مي لموسيقانا أن تظل شرقية محضة، تعبر بأنغامها العميقة الحزينة، عن خفايا القلب الشرقي وحنينه ولوعته، وتلمس نفوسنا بترجيئها البسيط فتتهدي فيها إلى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخية.

ولا تنكر مي أصالة الموسيقى الأوروبية وبناءها على قواعد راسخة من العلم والفن، ولكنها في الوقت نفسه لا تنكر بساطة الموسيقى الشرقية وجمالها، ولم يمنع تقدير مي للموسيقى الشرقية وجمالها من نقدها وإظهار عيوبها حتى يتاح للمصلحين إصلاحها وحذف ما علق عليها من الشذوذ، والإفراط في المرادفات والتطويل في الآهات وذلك ببث نسمة الإنعاش فيها، ومعرفة التطوير والتجديد،

ولكن ليس بالنقل، بل بالاستيحاء للنهوض بها إلى مستوى فني رفيع .

وتحمد مي في الموسيقى الشرقية الجديدة، التجديد الأخير الذي دخل عليها، وهو ضبط الألحان بالعلامات الأجنبية، بعد أن كانت كالشعر القديم تنتقل بالتواتر والتواتر من جيل إلى جيل .

ومي في نقدها للتصوير تظهر حذقاً لا يقل عن مقدرتها في نقد الموسيقى حين تقول:

«إن الرسم والتصوير والنحت، كالشعر والموسيقى والكتابة الأدبية، فلا بد أن يتساوى فيها حظا الصنعة والفن، أي كيفية التعبير، وكمية من شخصية يتسنى التعبير عنها . . وليس من الضروري أن يتكاثر العدد، ولكن من المحتم أن يرتقي الفنانون، وتصفّل مواهبهم، وتجد آثارهم»^(١) .

ونلاحظ أنها في مقالها «معرض الصور المصري» كما في مقالها عن الموسيقى تعد رائدة لأنها تعالج موضوعاً جديداً، وتأتي بمصطلحات جديدة، لأن نقد الفنون الجميلة كان لا يزال في طور الحداثة .

وكان غرضها الأول من مقالها هذا هو تشجيع إقامة المعارض كشرط أساسي لتعزيز النهضة الفنية ومن هنا تبرز غيرتها على النهضة بجميع مظاهرها في التصوير، أو في الموسيقى أو سواهما .

(١) مي زيادة التوهج والأفول .

مي زيادة وتعلقها باللغة العربية والسير بها نحو التطور والنهوض

أحبت مي اللغة العربية حباً كبيراً فشغلت نفسها لفترة طويلة بمسائلها ومشكلاتها، مقترحة وسائل لإصلاحها وجعلها متمشية مع مقتضيات العصر وتطور الزمان.

ولها مقال يدل على دراسة عميقة واستيعاب لحضارات الأمم عامة وحضارة العرب خاصة عنوانه: «حياة اللغات وموتها، ولماذا تبقى اللغة العربية حية؟».

تناولت فيه موضوع اللغة العربية والحضارة، وتعرضت لحضارات اليونان والرومان والعرب، بكلام يدل على اطلاع واسع وأثبتت فضل العرب على الإنسانية مؤيدة كلامها بأمثلة من واقع التاريخ ومن صحيح الوقائع.

وذكرت أن اللغتين اليونانية واللاتينية عدتا في صف اللغات الميتة

منذ سقوط مدينتهما وأن العربية احتفظت بحياتها بعد زوال مدينة العرب
بسبعة قرون، وردت ذلك إلى القرآن الكريم الذي كان باعثاً على تكوين
المدينة العربية، والذي ما زال حافظاً لها وللغة العربية إلى اليوم.

ولقد بلغ من حب مي للعربية أنها كانت تهتم اهتماماً عظيماً
بالمجامع العلمية العربية. وهذه المجامع لم تكن لها صبغة العلوم
كمجمع تقدم العلوم البريطاني مثلاً، ولكنها سميت بالمجامع العلمية -
كمجمع بيروت العلمي، أو كالمجمع العلمي العربي بدمشق - على
الطريقة القديمة التي تسمى كل متخرج في الأزهر أو في القضاء
الشرعي «عالمًا».

وفي سنة ١٩١٩ وإثر ما تعرضت له اللغة العربية من مؤامرة بأنها
صعبة التعلم وأن العامية أصلح للتعبير وأقدر على الأداء عبّرت مي عن
غضبها لذلك تقول:

«الإصلاح ليس الهدم دواماً بل هو في الغالب تبديل،
وصقل وتكييف إذ ليس في صالح الأمة إنكار الماضي
الزاهر بالأمجاد الأدبي والحكمة».

وقالت بعد ذلك:

«أما نبذها - تعني العربية - والاستعاضة عنها باللغة
العامية، فاعتراف بالعز والخذلان، لأن اللغة تنتعش
بانتعاش الأمة وتجمد بجمودها».

لقد رأت في العامية خطراً على الفصحى ولم تأذن للأولى أن
تدخل حرم الثانية وهو مقدس، ولم تجر مع الجارين في سبيل مناصرة
العامية.

وكانت بموقفها النبيل هذا محترمة القواعد والأصول ويظهر اعتدالها في قولها:

«وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب، هو رفع العامة إلى فهم أوسع وأحذق والتزول ببعض الخاصة إلى ميدان أسهل ليتم في اللغة ما هو تام بين المراتب ومن التمازج»^(١).

إنها ترى أن اللغة العربية الآن في بدء نهضة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الناطقين بها. ومن أهم دلائل هذه النهضة سيرها الحثيث، وهي تتناول شتى المسائل بلغة جليلة تطرح التطويل والتعقيد يوماً فيوم دون أن تفقد شيئاً من متانتها وروحها وذلك تمشياً مع حاجة العصر ونزعاته في السرعة والإيجاز. وما جاء به الزمن من مخترعات، وأحاسيس ومبتكرات وصور. كذلك أرادت أن نتكلم ما شئنا من اللغات، ولكن لا ننسى لغتنا العربية. وبينت أن شعراء الأجانب لن يصلوا إلى الإتيان بمثل ما يميز شعرنا من جزالة اللفظ وفخامة المبنى ووصف المعنى والبساطة البليغة، بساطة الروح العربي وبلاغته الخلافة.

(١) «بين الجزر والمد» مي زيادة.

فن المراسلة عند مي زيادة

بالإضافة إلى الفنون التي عالجتها مي فإنها لم تنقطع منذ نشأتها عن معالجة فن كان دائماً مرآة لنفسية الأديب وتأريخاً لفترات حاسمة في حياته وسجلاً أميناً لثقافته نعني به «فن المراسلة».

وقد تنوعت دواعي رسائلها ومن هنا كان اختلاف مواضيعها:

١ - هناك الرسائل العائلية وهي التي تبادلتها مي مع أقربائها كرسائلها إلى نسيبها الدكتور جوزف زيادة ولا تخرج مواضيعها عن تناول أمور شخصية (نفسية وصحية).

٢ - هناك الرسائل الإخوانية وهي التي كانت ترسلها لأصدقائها وصديقاتها كرسائلها إلى يعقوب صروف ولطفي السيد وأنطوان الجميل وعباس محمود العقاد وأمين الريحاني وإلى ملك حفني ناصف (باحثة البادية) وجوليا طعمة دمشقية.

٣ - ومن هذه الرسائل ما تناولت أموراً ذاتية كوصف حالات نفسية أو مزاجية للكاتبة.

٤ - ومنها ما تناولت شؤوناً ثقافية فكرية غالباً ما ترتبط بمناسبات خاصة، كظهور كتاب أو إثارة قضية ثقافية في الصحف أو احتفال له طابع سياسي، كما هو في رسالة مي إلى لطفي السيد بمناسبة حفلة تأبين فتحي زغلول باشا، وكرسالتها إلى يعقوب صروف بمناسبة إثارة قضية الشعر القصصي الحماسي والملاحم في الصحافة المصرية..

٥ - وهناك الرسائل العاطفية وهي التي تبادلتها مع جبران خليل جبران وعباس محمود العقاد.

وهذه الرسائل العاطفية لم تكن تخلو من تناول بعض الأمور الثقافية. ففي رسالة لها مرسلة إلى جبران خليل جبران في ١٢ أيار سنة ١٩١٢ يمتزج رأي مي في كتاب (الأجنحة المتكسرة) لجبران بمناقشتها له بموضوع الزواج.

٦ - وهناك الرسائل الصحافية ونقصد بها الرسائل التي كانت تتبادلها مي مع قرائها مباشرة أو على صفحات الصحف تعليقاً على مؤلفاتها ومقالاتها.

٧ - هناك نوع من الترسل لمي في رسالة واحدة فقط من باب الترسل مع الذات. ففي الرسالة التي وجهتها مي إلى فتاة (وقد نشرت في «سوانح فتاة» تحت عنوان «ألا احرصي على قلبك يا فتاة») ننتبه أن هذه الفتاة الموجهة إليها الرسالة ليست سوى كاتبة الرسالة مي زيادة بالذات.

أهم الرسائل المنشورة لمي حتى اليوم هي:

أ - الرسائل التي نشرتها في مؤلفاتها: (أزاهير حلم - سوانح فتاة - الصحائف - بين الجزر والمد).

أزاهير حلم: احتوى على رسالة إلى صديقة لها اسمها سيدوني ريجر، ورسالة إلى صديقة لم تذكر مي اسمها سوى (ص - ر).

سوانح فتاة: اشتمل على رسالة مي إلى الفتاة التي أشرنا إليها.

بين الجزر والمد: رسالة من مي إلى الفتاة المصرية تحت عنوان «الحياة أمامك» وعلى رسالتين إلى الدكتور يعقوب صروف تحت عنوان «رسالة وحشية» و«الشعر القصصي الحماسي» تناولت فيهما مواضيع أدبية.

الصحائف: نجد رسالة من مي إلى لطفي السيد بمناسبة عدم دعوة النساء لتأبين فتحي زغلول باشا.

أما من راسلتهم مي فكانوا:

من الصعب تسمية جميع من راسلتهم مي ولكن ومن خلال الكتب التي جمعت رسائلها أمكننا التعرف إلى بعض أسماء الذين كان بينها وبينهم رسائل متبادلة عالجت جميع الأمور وأهم مستجدات العصر.

ومن الذين راسلتهم (ولي الدين يكن) وأنطوان الجميل وأمين الريحاني وعباس محمود العقاد وجبران خليل جبران وأحمد لطفي السيد. وكذلك رسائل متبادلة بينها وبين (باحثة البادية).

وتكشف رسائل من راسلوا مياً حقيقة العلاقات التي كانت تربط مي بمراسليها فضلاً عن كونها تكشف الكثير من الجوانب المجهولة في نفسياتهم وثقافتهم.

هناك مواضيع عديدة عالجتها مي في رسائلها منها:

١ - المواضيع الثقافية: في إحدى رسائلها إلى الدكتور يعقوب صروف تناولت دور الصحافة في معرض التعريف بالنشاط الثقافي والاجتماعي في البلاد فتقول:

«إنما أسألك: كيف يمكنني، أنا الجمهور أن أطلع على حركة التأليف والترجمة في البلاد، في مختلف الموضوعات الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتمثيلية والأدبية الخ؟ كيف يمكنني أن أعلم بصدور ما يهمني من الكتب، سواء كان اهتمامي بها اضطراراً للعمل وكسب الرزق، أم للفائدة الفكرية، أم للتفكهة وإرضاء الرغبة؟ إن رسائل الأخبار الكبرى هي الصحف السيارة، وكل الغاية منها إيصال الأخبار إلى الجمهور وإطلاعه على ما يجري في بيته وفي العالم من الشؤون والحوادث. فإن لم تنقل لي تلك الصحف ما وجدت لنقله ونقل نظائره، فمن ذا يكون الرسول بين المؤلف الذي كتب للجمهور، وبينني أنا الجمهور الذي أنطلع إلى ما ينشر لي مؤلفي».

كما تعرف (الصحافة) تعريفاً بليغاً:

«الصحافة سجل الوقائع اليومية، والمرآة التي ينعكس عليها نفسية البيئة الصور المتتابعة التولد».

وتناولت من المواضيع الثقافية موضوع الملاحم والشعر القصصي الحماسي. ففي رسالة لها أرسلتها إلى الدكتور يعقوب صروف تحاول أن تميز بين الشعر الملحمي (Epique) وبين الشعر القصصي الحماسي الذي عرفه العرب.

ونخلص مي في هذه الرسالة إلى وضع حدٍ حاسم لمسألة طالما تغنى بها بعض المغرضين على التراث العربي عندما خلقوا من عدم

توفر الملاحم عند العرب عقدة نفسية حضارية إن صح التعبير وفي ذلك
تقول مي:

«ومن طبيعة العربي الهبوط إلى نفسه وتحليل ما
يجول فيها من عاطفة وميل ورغبة ومفخرة، فإذا ما
أقبل ينشد تغنى بما يهيجه من غضب وكيد وانتقام
وحماسة وكرم ونخوة.

فكان مبدعاً شعر الحماسة والفخر، أو نظم المراثي
أو زفر بما يسر جنانه من وجد وحنين، فكان مبدعاً
شعر الغزل والنسب. وشعره الوصفي يتمي دوماً
إلى أحد هذين النوعين لأن الطبيعة العربية لم تهتم
قط بالنظريات المجردة ولم تنزع إلا إلى الأشياء
المحسوسة الملموسة. فجاء شعرها الفريد صورة
صادقة لجوهرها الوجداني. وكان الشعر القصصي
الحماسي عندها متفقاً وسليقتها الخاصة يجري على
منهجها الخاص خاضعاً لجمالها العربي الأنيق
الخاص.

ولو قام أحد شعراء عصرنا بسرد تاريخ الأمة العربية
لجاءت هذه العلواء المجيدة أعظم وأبدع إليادة في
تاريخ الأدب عند جميع الشعوب».

وتتابع مي:

«أثبت هذا الرأي ليس بصفته رأياً حسناً ولكن بصفته
رأيي - كما كان يقول مونتائين. وقد يكون الخطأ
نصيبي والصواب في جانب غيري. ولكن الحقيقة

كعبة جميع الباحثين فإنما إياها ينشدون في كل نفي وإثبات. ولو أردت اليوم كتابة ما دورته بالأمس لما أبدلت من الألفاظ الأساسية لفظة واحدة. ولو لم يكن كذلك من سبب سوى حمل الشاعر البغدادي على كتابة تلك الصفحات الممتعة النفسية الاثنتي عشرة في معارضي لكفى».

وقد عالجت بعض المواضيع اللغوية ..

- كان نتاج جبران موضوع العديد من مقالات مي فقد حوت رسائل مي العديد من آرائها في هذا النتاج، من ذلك رأيها في كتابي جبران «المواكب» و «المجنون» في رسالة وجهتها له بعد مقال نشرته في (الهلال) تعليقا على كتاب المواكب وكان رسالة مي في موضوع هذين الكتابين - كما وصفها جميل جبر في كتابه «مي وجبران» أقسى لهجة والذع نقداً. فبعد أن استنكرت استسلامه لنيثشه وطريقته في الكلام على الشهوات، ثار غضبها في الختام فقالت: «هذا هو المجنون، أهو أنت المجنون؟...».

وتعرض مي آراءها في مسرح توفيق الحكيم وأدبه في رسالة أرسلتها في ١١ يوليو سنة ١٩٣٤ وفي هذه الرسالة تتنبأ مي لتوفيق الحكيم، كما تنبأت لطفه حسين، بمستقبل كبير، وفي ذلك تقول تعليقا على مسرحيته «فتيان الكهف» فتقول:

«أشعرني كتابك بأن بيراندللو مصري يتولد عندنا
وذاك من الشواهد على أن الحضارة الفكرية في مصر
ماضية في التوغل. إذا ليس من هو أدري منك بأن
الفرق الجوهرى (المشتمل على فروق لا تحصى بين
الحضارة والافتقار إلى الحضارة) هو أن الافتقار إلى

الحضارة غرار واحد تطبع عليه جميع الشخصيات بينما الحضارة في ازدهارها تشبك كلاً من شتى الشخصيات في قالب مستقل. ونسج من نوع خاص هي شخصيتك الجديدة الكثيرة التملص والتقلص.

جديدة؟ بل هي قديمة أيضاً كالماء والهواء. قديمة
كعناصر الفكر والشعور والفن. ويخيل إليّ أحياناً أن
كل صورة صنعتها في كتابيك إنما التقيت بها في
بعض أعمارك السالفة فجلت بها جولة الخير في
سحيق موفور الشجن والإغراء.

٢ - كذلك عالجت مي المواضيع العلمية في رسائلها. ومنها
الرسالة التي أرسلتها إلى الدكتور يعقوب صروف سنة ١٩٢٠ تشير مي
فيها إلى دائرة المعارف الفرنسية والمراسلات بين دالمير وفولثير
بشأنها.

٣ - أما المواضيع الاجتماعية فقد احتلت حيزاً كبيراً في مراسلات
مي وفي طليعة هذه القضايا حقوق المرأة حيث يتجلى ذلك في رسائلها
إلى ملك حفني ناصيف (باحثة البادية) كما في رسالتها عام ١٩١٢
وكذلك رسالتها إلى لطفي السيد التي كتبها سنة ١٩١٤ بعد حفلة
الأربعين التأبينية لفتح زغلول باشا احتجاجاً على عدم دعوة المرأة
للاشتراك في حفل التأبين وفي هذه الرسالة تدافع مي عن المرأة إثر
طرحها سؤالها التالي: لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفل
التأبين؟ وتستغرب مي أن يبخل على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها
إلى أسمى درجات التأثير المفيد، ويلفت عقلها إلى هبة العلم وعظمة
الفضل ويعلمها إجلال الوطن ورجال الوطن. وتختتم مي رسالتها
بقولها إنه لو حضر النساء هذا الاجتماع لأخذن عنه أمثلة طيبة وحفظن

منه في نفوسهن أثراً جليلاً.

٤- وهناك من الرسائل التي تحمل مشاعرهما العاطفية كما رسائلها إلى جبران خليل جبران أو رسائل الصداقة كما في رسائلها إلى الريحاني ولا سيما في رسالتها في ١٥ أغسطس سنة ١٩٣٩ حيث تقول:

«صديقي العزيز جار الوادي وسيد: نحن الآن في
عشية عيد العذراء، عنيت عيد انتقال ستا مريم إلى
السماء، وناقوس جبراني الرهبان آخذ في القرع
والترنم يدعو إلى «زياح» المساء..»

وهل في وسعي وأنا في مصر أن لا أتجرد الساعة
- مرغمة - من الشعور بوجودي هنا لأحسّ أنني في
«فريكتكم» الخالدة مقيمة، أجلس على سطيحة عمو
أبي سلمون،ظهري إلى صنين والجرد جهتي أشهد
عنده وداع الشمس لهذه الناحية من الأرض، على
وقع رنين الأجراس...»

وهناك أيضاً في بعض رسائلها تعتمد مي على شكل الترسل
الذاتي كما في رسالة وجهتها إلى فتاة تحت عنوان «أحرصى على قلبك»
في «سوانح فتاة» وفي هذه الرسالة تناجي مي نفسها معبرة عن القلق
الذي يملأ كيائها بالذات إذ إن تلك الفتاة التي تخاطبها مي في رسالتها
ليست سوى مي بالذات والرسالة غايتها الترويح الوجداني:

«... أخبريني ما بك، أيتها الفتاة! لماذا أراك عند
نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتاقين ما ليس
بالبادي؟ وإذا تحولت عنك إلى مرآتي رأيت هناك

وجهك مفاجئاً حزينا؟ .

أهو أملٌ غزا نفسك فثقل على فؤاد منك اعتاد
القنوط؟ .

أم قرب تهليل الأمل يأس ينتحب وشعور بالفشل
طالما خالط الرجاء؟ .

جميع الأشياء انتعشت انتعاش من خرج من أزمة
وانفرج وأنت أي علة تصنك فتلويين وتأوهين؟ .

ألا احرصني على قلبك أيتها الفتاة!

جاء المساء مرة أخرى، جاء المساء وتبعه الليل
وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة
فأشعر بأن شيئاً فيك أمسى جثة .

لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساء بسكين
منه سرى يقطر دماً وظلاماً .

أخضعت نفسك لسحر الغروب ولم تحرصني على
قلبك! أما الآن وقد فرطت به فاحرصني على الجرح
المنفتح فيه .

احرصني على جرح قلبك، أيتها الفتاة! .

إنه لون فريد من الترسل مع الذات لا نظير له في أدب الترسل في
العالم . . وحبذا لو جاءت مي بمثله الكثير .

.. جبران في حياة مي زيادة..

أحبت مي زيادة جبران خليل جبران، دون أن تراه أو تسمعه أو تتحدث إليه.. أحبته وراسلته وما عرفته إلا بالخيال وعبر الكلمات المتبادلة.. ومات قبل أن تراه، ذلك هو سر الضحكة الأليمة التي افترت عنها شفتاها لحظة أنشدت أناشيد الحب!.. فكان الملل وكان الفراغ:

«أتعبني الملل، فهمت على الجبل، ومضت الساعات
بلا هدف ولا غاية.. كل ما حولي صامت، وكل ما
في صامت. شئت أن أخدع الملل فنهضت..
وأنشدت أناشيد حب، فأحسست شفتي تفتزان عن
ضحكة أليمة، ما عرفت مغزاها»^(١).

عمدت مي في مراسلاتها إلى جبران أن تجذبه إلى عالمها

(١) مذكرات مي زيادة.

الروحي، أن تخرجه من جو أميركا حتى إذا وفقت إلى اجتذابه ذاك وإخراجه هذا، حملته على السير في الحياة المشتركة..

وتواصلت الرسائل بينهما لفترة طويلة وكانت رسائلها إليه تخفي حُبّاً عواطفها وحيناً تفضحها.. حتى عندما كانت تدعوه إلى حصر مواضيع المراسلة بالقضايا الثقافية كما في رسالتها عام ١٩٢٠ في ديسمبر حيث تقول:

«أنت قيدتني (مذنب) في ذفرك وقمت تشكو لأنني كلما حدّقت في شيء أخفيه وراء القناع، وكلما مدت يداً أنقبها بمسمار. نعم فعلت ذلك متعمدة. تعمدت قطع تلك الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب وتعمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح وصرت أحرف المعاني وأمسح الأسئلة وأضحك عند الكلمات التي تملأ العينين دموعاً.. وهل كان لدي وسيلة أخرى لأحوّلك عن هذا الموضوع وأذكرك أنني وحيدة أبوي؟»

تعمدت ذلك خصوصاً لأوفر على نفسي عذاباً هي في غنى عنه ولأتحايد كل كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكاً وعلقماً في هذه السنوات الماضية. ففهمت ما أريد وإنما في غير معناه الحقيقي وفهمته على وجه لم أقصده».

وتصل العواطف بينهما إلى الأوج في الرسائل المتبادلة عام ١٩٢٤ إذ تقرأ في إحدى هذه الرسائل عبارات تفضح عواطف مي منها:

«ما معنى هذا الذي أكتبه؟ إنني لا أعرف ماذا أعني به،

ولكنني أعرف أنك محبوبتي وأناي أخاف الحب، إني لأنتظر من الحب كثيراً فأخاف أن لا يأتيني بكل ما أنتظر. أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ولكن القليل في الحب لا يرضيني. الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير.

ورغم الحب الذي نشأ بينهما فإن رسائل مي وجبران لم تكن مجرد رسائل عاطفية فقد كانت تتناول بعض الأمور الثقافية. ففي رسالة لها إلى جبران في ١٢ أيار سنة ١٩١٢ يمتزج رأي مي في كتاب «الأجنحة المتكسرة» لجبران بمناقشتها له بموضوع الزواج.

وأحياناً تختلط المسائل العاطفية بنوع من الذكريات واليوميات كما في رسالتها في ٩ ك^٢ سنة ١٩٢٥ التي تروي له فيها كيف قصت شعرها قصة غلامية.

تذكر وداد سكاكيني: «إن الرسائل المتبادلة بين مي وجبران قد تناولتها أيد كثيرة بعد وفاة الأول ومحنة الثانية ولم ينشر بعضها إلا حوالى سنة ١٩٣٨ وما بعدها ثم ذاع خبرها وشغلت الصحافة العربية بذكرها وضياع كثير منها وفتحت للأقلام منافذ جديدة للبحث في حياة جبران ومي وتأويل ما كان بينهما، لكن أكثرها كان غير جدي، ولا مثالي في الدراسة والتأليف بل كان من هذه الأقلام ما لم يتورع أصحابها عن اصطناع بعض الرسائل في حكايات غرامية أشبه بالروايات والمغامرات بغية الترويج للمجلات المتجددة والكاسدة دون رعاية لكرامة هذين الأديبين اللذين ظلمهما بعض الأصدقاء بعد الوفاة كما ظلم كل منهما نفسه في الحياة».

مي وأسلوبها الأدبي:

إن أشعار مي ومقالاتها التي تتضمن خواطرها الحميمة ومذكراتها وقصصها، تجمع بين طرافة الأسلوب وتوقُّد العاطفة والخيال، وهي من الأدب الذي يعيش ولا يذهب بقيمته مع مرور الزمن.

وقد أجمع كبار الأدباء في مصر على الإعجاب بأسلوب مي واستحسان ما فيه من تجديد. منهم العقاد حيث يقول في نقده لكتابها «الصحائف» إنها «كاتبة مطبوعة». أما يعقوب صروف فيقول في مقدمة «باحثة البادية» يثني على الكتاب بقوله: «إنها جارت أكتب الكتاب الأوروبيين في هذا النوع من البحث والانتقاد. . وإذا كان بعض استعاراتها مقتبساً من لغات أوروبية فذلك ليس بدعاً في العربية، بل قد سبق إليه جماعة من أساطين الكتاب مثل الجاحظ والصابي، وابن المقفع وابن خلدون فزاد في غنى العربية بما أضافوا إليها»^(١).

(١) مقدمة «باحثة البادية».

ويقول منصوّر فهمي: «إنني أعدّ الطريقة التي جرت عليها مي في كتابتها مثلاً للكتابة الراقية» ويضيف «كان لهذا الأسلوب المتميز، المختارة ألفاظه المنمّقة عباراته، جرس جميل في أذن السامع ووقع حسن في نفس القارئ»، وكثيراً ما كانت توفّق مي في هذا السبيل».

(ولمي طريقتها في المهاجمة والتهكم والنقد). فقد كان لها بعض نظرات وآراء في الإصلاح الاجتماعي وخاصة فيما يتصل بالمرأة، وباللغة والشرق.

وكان لا بد لها لتوجيه إصلاحها في الطريق الذي يضمن له النجاح أن تهاجم عادة سخيفة، أو تنحى باللائمة على أمر غير مقبول، أو تنتقد ما هو موضع للانتقاد. ولكن ميّ امرأة قبل أن تكون كاتبة، وفنّانة رقيقة قبل أن تكون ناقدة عنيفة، ولهذا كان نقدها رقيقاً وكان لومها وعتابها لطيفاً رقيقاً، وكان تهكمها لا يجرح شعوراً ولا يؤذي إحساساً ولا يمسّ كرامة. وكانت سخريتها - إذا سخرت - هي ضرورة المفضي الكريم لا عمل الشامت اللثيم.

سمعت رجلاً عربياً يزعم اللغة العربية ثقيلة على لسانه، وأن بعض حروف الحلق فيها كالحاء والخاء يؤذي السمع والحلق! فعزّ ذلك الانسلاخ البغيض على مي... وكتبت مقالاً عنوانه: «تكلّموا لغتكم» وظلت تلذّع هذا العربي بسخريتها العنيفة قائلة: (إن من الطراز الحديث المكرر ثلاثاً، فتح فاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين... وطفق حضرته يتكلّم الفرنسية جاعلاً الرء منها غيناً غناء^(١)).

(١) بين الجزر والمد.

وتعجب على المجمع اللغوي القديم لركود طراً على حياته ونشاطه فتقول: «وصلنا إلى المجمع اللغوي الذي تتخاصم صحف العاصمة لأجله وهو في غيبوبة الأحلام».

وحدث أن وقع ثلاث سرقات في يوم واحد من أيام القاهرة وكانت هذه الحوادث موضوعاً للحديث والتندر والتفكهة في الصحف وعلى ألسنة الناس، فتناولت مي هذه الحوادث بنقد أليم رفيق لرجال الشرطة قائلة^(١): (والبوليس لا توقظوه! إنه نائم بالسلامة كطفل بري...).

وشهدت القاهرة في منتصف سنوات الحرب العالمية الأولى ارتفاعاً في عدد حوادث السرقات، من البيوت ومن الدكاكين على السواء.. وحركت هذه الظاهرة شعور أديبتنا الذكية اللماعة، فكتبت مقالاً بعنوان «الحركة بركة» تسخر فيه من رجال البوليس الذين لا يؤدون واجبهم على أكمل وجه، وتتهكم منهم على طريقتها البارعة في السخرية والتهكم: «... أما البوليس فلا اعتراض على وقفته: يقف في النهار بكرامته وعلى مقربة منه تتخاصم الناس، وتتصادم المركبات، وهو - والله الحمد - واقف بالسلامة، منصوب قوامه إلا من طرفيه، كالألف المتقنة الصنع، وهذا يزيده شهباً بإله الحدود القديم عند الرومان!.. أستغفر الله، لست أعني أنه يظل واقفاً كالتمثال! كلا، ثم كلا! إنه يمشي أحياناً، ويرفع يده مسلماً على بعض المارين في المركبات، وطرف حديث مع الإخوان لا يزعجه، بالعكس. وهو مع ذلك متمم أمور وظيفته، فإذا رأى قبيل المساء حودياً لم ينور شمعتي

(١) سوانح فناة.

مركبته صاح إله الحدود الجديد، باسطاً ذراعيه إلى الأمام وقال: نور يا أسطى!!).

هذه كانت مي رحمها الله في نقدها وسخريتها وتهكمها ودعابتها، كانت ناعمة، رقيقة لينة، كالشوكة اللينة، تخز ولكنها لا تدمي^(١).

(١) محمد حسن / مي أدبية الشرق والعروبة ٨٩.

- نحو النهاية -

بعد أن فقدت مي الكثير من أصدقائها والداها ووالدتها بعد ذلك ثم لحق بهم جبران خليل جبران . . تخلت عن كل ما يجعل للوجود معنى وقيمة وقبعت في دارها وحيدة منعزلة تهيمن عليها الوسواس ، وسرى إلى قرارها مرض نفسي عقلي أكبر الظن أنه ذلك الداء الذي يسمونه في علم النفس «إرادة الموت» .

لقد انطوت في سريرتها دون أن تعي أو تشعر على ضرب من التبرم بالوجود لا يصدّ أثره السيء في كيان النفس ونفس المرأة خاصة إلا أحد أمرين: إما إيمان ديني عميق يستلها من وساوسها ، ويودع كيانها الأمن وسط الظروف الراحبة أو عاطفة طاغية تشدها إلى الحياة شدة لا فكاك لها منه ، وتحملها على الصبر والتضحية . وهذه العاطفة تحملها المرأة عادة نحو ابن أو ابنة من لحمها ودمها ويعسر أن تحملها نحو كائن آخر .

وعادت مي إلى لبنان وأودعت مشفى «العصفورية» وما كادت

مي تعرف أنها تحولت في نظر الناس إلى مجنونة يجري عليها ما يجري على المجانين حتى جنت فعلاً، ضمن جدران المصح، وحاولت أن تقتل نفسها خنقاً ولكن هذه الجُنّة لم تكن في واقع الأمر سوى ثورة منها لكرامتها، وتمرد على نظرة الآخرين إليها.

وشاع في الناس أن مي تعرضت لاضطهاد لا يجوز السكوت عليه وأن الذين اتهموها بالجنون فإنما لأغراض في نفوسهم لا تمت إلى الحقيقة بصلة. وبدأ بعض المقربين إليها يشنون حملة صحفية لإنقاذها ووقفوا بذلك ونقلت من العصفورية إلى مستشفى ريبز في بيروت. وهناك أضربت عن الطعام. وصرحت لمجلة (صوت المرأة) قائلة: «أضربت عن الطعام لأنني اشتييت الموت بعد ما لاقيت من اضطهاد وعنف، ورفضت استقبال الناس لأن الذين زاروني كانوا يحدثونني أحاديث تدل على اعتقادهم بجنوني».

لقد اهتمت مي بالنظرة التي يوجهها إليها الآخرون بسبب اضطرابها العميق.

وانتقلت مجدداً إلى القاهرة ثم جاءها نبأ وفاة صديقها (فليكس فارس) فعاد إليها مرة ثانية مرضها الأصيل (إرادة الموت) وقويت أعراضه في السابع عشر من شهر تشرين الأول ١٩٤١ فامتنعت عن تناول الطعام والاتصال بالناس ودامت على هذه الحال ثلاثة أيام متوالية حتى إذا كان ليل العشرين من ذلك الشهر، ارتمت على سريرها وهي لا تقوى بعد على الحراك.. وأسلمت الروح دون أن يعرف بها أحد.

المراثي

أقيمت حفلة تأبين لها بعد نحو شهرين من وفاتها وذلك بسبب الظروف التي كانت تمر بها البلاد عند وفاتها . .

وقد تحدث في الحفل الأحياء من عارفها، تحدثوا عن فضلها وأدبها ومآثرها .

وقد وقف الشاعر خليل مطران في تأبين مي يقول من قصيدته :

أقفر البيت أين ناديك يا مـ

سي إليه الوفود يختلفونا

صفوة المشرقين نبلاً وفضلاً

في ذراك الريحيب يعتمرونا

فتساق البحوث فيه ضروباً

ويدار الحديث فيه شجوناً

وتصيب القلوب وهي غراث

من ثمار العقول ما يشتهينا

ويقول العقاد في مراثيه الشعرية:

أين في المحفل «مي» يا صحاب؟

عودتنا ههنا فصل الخطاب

عرشها المنبر مرفوع الجناح

مستجيب حين يدعى، مستجاب

أين في المحفل «مي» يا صحاب؟

سائلوا النخبة من رهط الندى

أين «مي» هل علمتم؟ أين مي؟

الحديث الحلو واللحن الشجي

والجبين الحر والوجه النسي

أين ولّى كوكباه؟ أين غاب؟

أسف الفن على تلك الفنون

حصدتها - وهي خضراء - السنون

كل ما ضمه منهن المنون

غصص ما هان منها لا يهون

وجراحات، وآس، وعذاب

شيم غر رضيعات عذاب

وحجى ينفذ بالرأي الصواب

وذكاء المعى كالشهاب

وجمال قدسي لا يعاب

كل هذا في التراب. آه من هذا التراب!

كل هذا خالد في صفحات

عطرات في رباها مشترات

إن ذوت في الروض أوراق النبات

رفرفت أوراقها مزدهرات

وقطفنا من جناها المستطاب
 حي «مياً» إن من شيع مياً،
 منصفاً، حيا اللسان العرييا
 وجزى حواء حقاً سرمدياً
 وجزى مياً جزاء أريجيا
 للذي أسدت إلى أم الكتاب
 للذي أسدت إلى الفصحى احتساباً
 والذي صاغته طبعاً واكتساباً
 والذي خالته في الدنيا سراياً
 والذي لاقت مصاباً فمصاباً
 من خطوب قاسيات وصعاب
 أنراها بعد فقد الأبوين
 سلمت في الدهر من شجو وبين
 وأسى يظلمها ظلم الحسين
 ينطوي في الصمت عن سمع وعين
 ويذيب القلب كالشمع المذاب
 أنراها بعد صمت وإباء
 سلمت من حسد أو من غباء
 ووداد كل ما فيه رياء
 وعداء كل ما فيه افتراء
 وسكون كل ما فيه اضطراب
 رحمة الله على «مي» خصلاً
 رحمة الله على «مي» فعلاً

رحمة الله على «مي» جمالاً
 رحمة الله على «مي» سجالات
 كلما سجل في الطرس كتاب
 تلکم الطلعة ما زلت أراها
 غصة تنشر ألوان حلاها
 بين آراء أضاءت في سناها
 وفروع تنهادى في دجاها
 ثم شاب الفرع والأصل، وغاب
 غاب والزهرة تؤتي الثمرات
 ثمرات من تجاريب الحياة
 خير ما يؤتي حصاد السنوات
 بعثرتهم الرياح العاصفات
 ورمتهن تراباً في خراب
 ردّ ما عندك يا هذا التراب
 كل لب عبقرى أو شباب
 في طواياك اغتصاب وانتهاب
 خلعا للشمس أو شم القباب
 خلقا، لا لانزواء واحتجاب
 ويك! ما أنت برادٍ ما لديك
 أضيع الآمال ما ضاع عليك
 مجد «مي» غير موكول إليك
 مجد «مي» خالص من قبضتيك
 ولها من فضلها ألف ثواب
 وهكذا انتهت حياة الأدبية والشاعرة مي زيادة تاركة للأدب

العربي نتاج أيام طويلة حاولت فيها أن توفق بين ثقافتي الشرق والغرب
وأن تساند حركة النهضة النسائية بجميع أساليب الأدب من مقالة
وخطابة وشعر ونثر.. انطفأت تلك الشمعة التي أضاءت لنا الطريق..

- مؤلفاتها -

أولاً: المطبوعة :

- ١ - باحثة البادية أو ملك حفني ناصف - مصر .
- ٢ - رسالة الأديب إلى الحياة العربية .
- ٣ - رجوع العوجة - رواية ترجمتها عن الفرنسية ونشرتها في مجموعة :
«روايات وقصص مترجمة ومقتبسة» .
- ٤ - ابتسامات ودموع أو الحب الألماني (تأليف مكس مولر) .
- ٥ - بين الجزر والمد : صفحات في اللغة والأدب والحضارة .
- ٦ - سوانح فتاة (مجموعة خواطر وآراء في الحياة) .
- ٧ - الصحائف (مختارات من مقالاتها في شتى المجالات) نقده عباس
محمود العقاد في «مطالعات الكتب والحياة» .
- ٨ - ظلمات وأشعة .

- ٩ - كلمات وإشارات - (مجموعة من الخطب الأدبية في مواضيع شتى اجتماعية وعلمية وفلسفية).
- ١٠ - المساواة. نقده الأمير شكيب أرسلان في مجلة المجمع العلمي العربي.
- ١١ - الحب في العذاب - رواية مترجمة عن الإنكليزية.
- ١٢ - غاية الحق - محاضرة ألقتها في الجامعة المصرية بطلب من جمعية فتاة مصر - ١٩٢١.
- ١٣ - الرسائل - نشرتها السيدة مادلين أركش - ١٩٤٨ نشرها جميل جبر.
- ١٤ - أزاهير حلم - ديوان شعر بالفرنسية، نشرته باسم مستعار.

ثانياً: المخطوطة:

تركت مي مؤلفات لا تزال مخطوطة، منها ٣٠ رسالة أو بحثاً تتراوح صفحات الواحدة منها بين صفحة ٢٥ و ٢٥ صفحة، وهي موزعة كما يلي: قصص (٤) - روايات (٣) - دراسات أخرى ومحاضرات (١٦) - أدب (٥) - شعر (١) بالفرنسية.

مقتارات

ابتسامات ودموع

مقدمة الطبعة الثانية

أراني راغبةً في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير إلى كيفية تعريب هذا الكتاب، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي «الحب الألماني» Seutsche Liebe باسم «ابتسامات ودموع» الذي عُرف به لدى قراء العربية. وأن أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغيير يبدو في كل جملة تقريباً، ومن زيادة أتيت بها في صفحات كثيرة من أغلب الفصول. وأن أشفع هذه التفاصيل بمجمل عن واجبات المعرب وحقوقه، وهو بحث ينحتم إخراجهُ على كلٍّ من الأدباء بآداب العرب في هذه السنوات التي شاع فيها نقل آداب أوربا إلى لغتنا شيوخاً كبيراً.

على أنني لا أكاد أذكر الترجمة الأولى إلا وأأخذ محيطي بالتلاشي وكأن القلم يسقط من يدي لأحدق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة سحرية تستهوي الوسيط وتسطر عليه أشرارها. ولا يطول حتى تنتقش عليها صورة المكان الذي أظننتي يومذاك سماؤه ودوت حولي أصواته. هاك

حفيف الأوراق، وتصفيق الأجنحة، وتغريد الطييار على الفصون. ألا فاصغ إلى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلوية بين أشجار الصنوبر صعوداً إلى قمة أشرفت على المرتفعات والمنخفضات يسرةً ويمنةً وشرقاً وغرباً. وانظر جانباً إلى صتين وقد أثقلت ذروته ثلوج حولها انعكاس الأشعة ثغراً نورانياً يسرُّ إلى صوب الفضاء بما توصله إليه أصداء الغبراء من شكاية وتأوه. تنشق من جانبه سلسلة آكام تتساند مستديرة، مستطيلة، ناشدة، وتظلُّ في انتقاصٍ ونصاغيرٍ على انسجام وحسن دراية حتى تسجد بواقٍ الصخور منها على أقدام الشاطئ. كأن أعالي صنين أنفذتها برسالة إلى البحر لتعود بالجواب عليها والبحر، آه! ترى ماذا يقول ذلك الأزرق الأفيح المائج بهدوءٍ ودلال، كأنه أرجوحة الأثير تهزها أيادي آلهة الهواء لتنوم فيها طفلاً عجيباً دهشت بجماله السماوات وافتتت الأرضين بغرامه؟.

نعم، ها أنذا في ظهور الشوير بلبنان، ذلك المصيف الهنيء. نحن في صميم القبط وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق. والجماعات التي نباينت أفرادها علماءً وتهذيباً وارتقاءً. وتنافرت عاداتٍ ومشارب وأطماعاً، ها هي تعيش تحت سقفٍ واحدٍ وتتبع في أمورٍ جمّة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزول جميعاً. ومن هذا الاجتماع بالغبراء، ومحاذاتهم أياماً وأسابيع وشهوراً، والجلوس وإياهم حول مائدةٍ واحدةٍ مرةً بعد مرة، وحدة تنشأ وتثبت بال تكرار، فضلاً عن خبرةٍ موفوريةٍ لدرس أخلاق الناس وتعميرٍ ميسورٍ في أساليب المعاملة والإرضاء.

بيد أنني بعد الأحاديث المسلية والضحك والالتئاس أظلُّ شاعرةً بفرغٍ واسع، أظلُّ متسائلةً ماذا يعرف أولئك المتنادمون المتسامرون المغتابون - من بعضهم بعضاً، أظلُّ تافئةً إلى الوحدة والاختلاء تحت

أشجار الحرج الصغير. لذلك سميتُ في أن يُبنى لي هذا الكوخ الضيق من خشب الفصون ويسقف بالأعشاب اليابسة، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نُصِّدت عليها كتب قليلة. وإنما دعي كوخِي «الكوخ الأخضر» لأنِّي جَلَلْتُ جدرانَه من الداخل بنسيج أخضر. عدا عن أفنانٍ مخضوضبة حنَّت عليه. وخضرة غصّةٍ أهدقت به من كل جانب. هنا تعرَّفتُ بمكس مولر وبكتابه الجميل. تعرَّفتُ به في الخلوة لأنَّ الأرواح الكبيرة تنكمش في المحافل العادية ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعدادٍ لتلقّي فيض بهااتها.



كنتُ شرعتُ أدرس الألمانية في القاهرة إبان الشتاء ولم ينلني منها سوى عشرين درساً أو أكثر قليلاً. ولمّا ازدوت بالكتب قبيل الرحيل أضفتُ إلى حقيتي كتاباً ألمانياً لا غير، هو «الحب الألماني» هذا. وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروسية التي تتلمذت لها ذكرته ممتدحة أسلوب مكس مولر المشبع فكراً ومعرفة على سهولته ورشاقته. ونسبت هذه الرشاقة وتلك السهولة إلى كون المؤلف شاعراً بفطرته وورائته رغم اشتغاله بالعلم والبحث، وإلى كونه إنجليزياً بوالدته كما صار بعدئذٍ إنجليزياً بزواجه وباستيطانه إنجلترا أعواماً طويلاً. فكان له من إجادة اللغة الإنجليزية ومعالجتها والتأليف فيها مساعد قوي في تجريد جملة الألمانية من التطويل والصعوبة والإبهام الملازم لها غالباً عند كتاب الألمان، لا سيما العلماء والفلاسفة.

أنشأتُ أنصفح في عزلة «الكوخ الأخضر» ولم أفرغ من الفصل الأول حتى تملكنتي روحه الشعرية الفلسفية وأرهفتُ ذهني فتمكنتُ من الإحاطة بالمعنى العام وإن فانتني من معنى المفردات كثير. وما أتيتُ

عليه إلا وعدتُ أراجع قراءته مرّاتٍ حتى ابتهجّت بمحاسنه نفسي المنفردة. وعلى قصر باعي بالعربية التي كنت نشرْتُ فيها مقالات ابتدائية قلائل، ومع أني لم يكن لديّ معجم ألمانيّ، استعنتُ بالقلم والقرطاس لأرسم بلغتي تلك الخطوط البديعة؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والإنشائية لما أفصحتُ عن حركات النفس بسواها. وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت «ابتسامات ودموع» في ذيل «المحروسة» في الشّاء التالي، قال «أساءلُ ذاتي ساعة أقرأ ذيل «المحروسة» أنّني ناقلّة مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلك إلى الألمانية؟». في هذه الكلمة التي تخالُ تملقاً للوهلة الأولى، حقيقةً أوليّة هي كلّ قوة الكاتب الوجداني الذي إنّما نحكمُ له بالتفوّق لأنّه أحسن التعبير ليس عمّا يشعر به هو الكاتب، بل ما يشعر به نحن القراء. وكيف لا نحكمُ له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد اطلع على خفايانا وبسطها لنا وللعالمين. وكتاب «ابتسامات ودموع» من هذا القبيل آية سحرٍ وبراعة. لا يقصر على الوصف بل هو مهبط وحيّ للنفوس الحسّاسة.

كان ذلك في صيف ١٩١١ وبني تيقظ الفتاة الأولى، واستفسارها الصامت إزاء المسائل الكونية والعمرائية والروحية، وإعجابها المنتبه المتحفّز للاهتمام والتحمّس. وبني كذلك خجلها وحيرتها وتردّدها.

وكنْتُ كنيّة. كنْتُ أكتبُ لغير سبب، وأكتبُ للعوامل الدافعة بالاجتماع، الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً. حتى إذا احتमितُ بحمي الطبيعة وألقيتُ عليها اتكال روح رافقت الكآبة حبي واتكالي. الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال والقباحة، والخير والشر، والعدل والظلم، والكره والحب، والفوز والخذلان إليها تنتهي حركات التأثّر في جميع حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام

الدامس. أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم وبعبجه عن تحويل الأشياء عن مجراها؟ قد يكون. ولكن الواقع أن التنهّد والأسى نهاية كل عاطفة وكل فكر، كما أن كل عمر يزى يُختم بإرسال الزفرة وإسبال الجفون.

كنتُ قبلئذ أسير لا ألوي على شيء، إن وقعت عيني على شخص أو طرق سمعي موضوع نظرتُ في هذا وذاك نظرة استخبار سطحي. أما هناك فطفقتُ ألقى على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطر إلى الارتواء. من أنا؟ ما هو موقعي في الدنيا؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث، وتسخطني بعض الوجوه في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوهٌ وغيرها؟ لماذا أحبُّ هذه ولا أحبُّ تلك؟ لماذا ينث هذا في روحي وجوب احترامه فأسعدُ بتوجيه عاطفة جليّة إلى موضوع يليق بها، بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزؤ والامتهان؟ لماذا يفرحني الناس وأفرحهم؟ لماذا يؤلمني الناس وأولمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة كثيرة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي. وهكذا صار كوخِي الأخضر سجنًا اختياريًا، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب وقد تسنى لي أن أستعرضها وأنفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع أو مجيب.

الفكر! ما أجذب الفكر إذا هو مُزج بطلاوة العاطفة وخيّم عليه أوشحة الخيال! عشتُ السنوات الأولى من حياتي دون تفكير، وها قد غدا الجناح الملوّن باللوان قوس السحاب يضرب جهتي ليفسح له فيها وكرًا، فصار كل موضوع، وكل شخص، وكل مشهدٍ طبيعي ينفخني بتأملات زرقاء وردية، ذهبية، فضية، مادية تحوم حولي تارة، وطورا تجثم فيّ متعاونة مع ما في الكتاب على إيصالي إلى روح الإنسانية.

فأكاد أسمع دقات قلبها وصدى أنينها فأدرك أنها شقية بجهلها واضطرابها وهمومها، وإنه قُدِّرَ على المختارين من بنينا أن يتألموا أضعافاً لأنهم السابقون إلى مقاتلة المجهول، وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة. فلا تضعف عزائمهم، ولا تكلّ أقدامهم، ويثابرون على تلمس السبيل في حالك الظلمات، ويسيرون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الإنسانية والثقة بتحقيق الآمال.



والطبيعة؟ يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجار والصخور على الجبال والوهاد فرقصت هناك الأشعة وانسلَّت هناك الأظلال! يا لخشوعها وقد تجمَّعت منازل القرى حول قبة الأجراس المنتصبة كالمسلَّة، بل هي قامت في الوسط ككاهن مدٍّ يمينه نحو العلاء مبتهلاً وجثت حوله الرعية خاضعة ضارعة! يا لبراعة الطبيعة بالتنوع في لبناني الجميل! لقد تصرَّفت بجميع فنون الجمال فهي منه كل يوم في حلة جديدة وهيئة طريفة. فساعة تفرق الكائنات جميعاً في أوقيانس ضياء يهر الأنظار ويذهل العقول؛ وساعة تزحف كتائب الضباب المتراسة من أطراف البحار وأقاصي الآفاق وتهجم فيالق السحب المتكاشفة من أقاصي الآفاق فتكتسح ما قام أمامها وتبسط رواقها الرمادي في الهواء، كأن العالم في دوره السديمي. ويعتدل النور والحرارة يوماً، ويبرز روح التيقظ والكتمان فتصح ألياق كل نبت، وكل قطرة ماء، وكل ذرة هواء، شاعرة بسرِّ الوجود الخطير، تؤيد بحركتها اللطيفة ضرورة مساعدتها وحقيقة كيانها؛ ويخال الهواء حساساً كقلب الولهان داوياً كالنحاس المجوَّف. وأنا تبدو خطوط الموجودات ونبرات الأصوات بوضوح غير عادي، وتنمو روعة الأشياء كأنها كبرت واتسعت، وربضت في مجاهلها الأهوال باتفاقٍ فجائيٍّ بين آلهة القدر. فيتولَّاني افتتان به

ينقلب الزمن والمسافة سائلاً متحركاً أو عباباً متموجاً يحملني تياره إلى حيث لا أدري من عوالم الخيال؛ شأن الحياة الإنسانية الضعيفة المسامرة، الإنسانية التي تجهل الغرض من تحركها ووجودها ولا تفتأ تذوب شوقاً إلى بلوغ غاية تزعم الإحاطة بها وهي في الواقع لا تعلم ما هي!.

وكم خلت القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيالاً أثرياً منبعثاً من البحر والجبال والكائنات جميعاً؛ وكم عبدت الطبيعة عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين والشعراء والمتممين، أولئك الذين يقدسون الحياة خارجاً عن أشخاصهم ومحصورة في آله، أو رمز، أو إنسان، وكم ملأت الدموع عيني شكراً للحياة، شكراً للطبيعة، شكراً لجميع الموجودات، شكراً لهذا الكتاب الذي تهادى بين سطوره خيالات اليأس والأمل والبكاء والابتسام والحب والموت واللانهاية.

أظنني قلت في مطلع الكلام إن القلم سقط من يدي، وكان وهماً. ها هو القلم يجري على الصحائف قليلاً قليلاً مستحضراً تلك الساعات تباعاً كما تتعاقب الصور المتحركة على غطاء المسرح، وما الألفاظ سوى رسوم إيمانية لحقيقتها. غير أن النفس تذخرها ككنوز ثمينة لأنها كبيرة الشأن في التطور الروحي والفكري مني.

«الحب الألماني»؟ كلا، ليس هذا الكتاب حباً ألمانياً فقط بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته. فسميته «إبتسامات ودموع». فإن كان ذلك تزييفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي.



ومرّت السنون وشاع الكتيّب وكادت نسخه تنفذ منذ ثلاثة أو أربعة أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب إعادة النقل من جديد. لأنني وإن رأيت بسرور أنني ألفت بروح الكتاب إماماً يكاد يكون تاماً غير أنني أهملت طائفة من الأفكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يجوز الإغضاء عنها.

والآن أهدي إليك، أيها القارئ، هذه الطبعة الجديدة ستحب هذا الكتاب سواء أكنت معلماً أو متعلماً، فيلسوفاً أو شاعراً، سياسياً أو تاجراً، سعيداً أو شقيماً، كبيراً أو صغيراً. ستحبها فيه وبه كما حيث. ستتمو به وتتوحد وإياه حيناً فينتزعك عن ميدان المزاخمة والمنافسة والحق والتهمك والحسد والإجهاد. ستوحد وإياه مستدعياً ماضيك، أو مفكراً في حاضرک، أو مترقياً مستقبلك. أو هو يمثل لك فصلاً من ماضيك وحاضرک ومستقبلك جميعاً في آن واحد، لأن المواطن لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة. بل يتبع طريق العمر جامعاً من يأسه وآلامه وانتصاره واندحاره خبرة وقوة توصلانه إلى سبل جديدة ومعارف مطلوبة. وحسبه أن ينبّه فيك التذكّار الحلو المرّ من معاني الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع وهي إرث بني الإنسان أجمعين.

(مي)

الذكرى الأولى

للطفولة أسرار وخصائص ولكن من ذا الذي يستطيع وصفها؟ من ذا الذي يستطيع تعليلها؟ لقد اجتاز كلُّ منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة، وخبر يوماً فيه فتح عينيه المملوئتين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفانضة في روحه. يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن: بل العالم كله يخصنا ونحن ملك العالم بأسره. حياة تخال دائمةً بلا بداية ولا نهاية لا همَّ فيها ولا ألم. القلوب عندها صافية كسماء الربيع، عذبة كعرق البنفسج، مطمئنة قدسية كصباح أيام الأحد.

ماذا يطراً على الطفل ليضطرب فيه هذا السلام الإلهي، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة؟ ما هي العوامل المحوِّلة معاني كيانه، تميّت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن وتعلّمه تمييز المفرد من الجمع فينتبه فجأةً فيجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كثيباً؟.

لا تقل، ياذا الوجه العبوس، إن تلك العوامل هي الخطايا! أو هل يجني الطفل إثماً ويقترف ذنباً؟ بل حرّياً بك أن تعترف أننا لكل شيء جاهلون، وما علينا سوى الاستسلام والامتثال.

أهي الخطيئة التي تثبت البذرة زهرة، وتنضج الزهرة ثمرة، ثم
تفني الثمرة وتذررها هباءً؟.

أهي الخطيئة التي تحوّل الطيار دودة، وتجنح الدودة فراشة،
وتسحق الفراشة هباءً؟.

أهي الخطيئة التي تصيّر الطفل رجلاً، وتشعل منه الرأس بشيب
الشيخوخة ثم تهمد الشيخ جثة، ثم تدقّ الجثة هباءً؟.

وما هو هذا الهباء الذي تضع فيه الصور؟ ألا فاعترف بأننا لكل
شيء جاهلون وأن ما علينا سوى الامتثال والاستسلام!.

على أنه يحلو التلقت إلى ربيع الحياة وإلقاء نظرة على هيكل
التذكّار، سواء أكنّا من العمر في قيظ الصيف، أو حزن الخريف، أو
زمهرير الشتاء. بل لا بدّ من ساعات كثيرة يناجي فيها القلب ذاته قائلاً
«وأنا الآخر أشعر بالربيع متيقظاً في!».

هذا ما أشعر به اليوم. وتراني نائماً على نديّ العشب في الغابة
العطرية لأريح جسمي المضنى. أنام رافعاً بنظري إلى زرقاء السماء
البادية من خلال الوريقات الخضراء وأفكر «ترى كيف كانت
طفولتي؟».

أخالني ناسياً كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه التوراة
القديمة المحفوظة في العائلة أي ان ورقاتها الأولى ذابلة متجمدة
ملوّنة، ولا تتيسّر القراءة إلّا بعد صفحات وصفحات، عند السطور
المحدّثة عن طرد آدم وحواء من الفردوس.

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعي أيامها

القصوى أعود بأحلامي إليها، وانتقلُ منها إلى الأبدية التي سبقتها،
وتنظّلُ البداية المبهمة متراجعةً أمامي كلما تتبّعها فكري القاصر، لأن
فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحدائث. وأنا في ذلك كالطفل
يبحثُ عن نقطة ارتكاز السماء على الأرض فيعدو حثيثاً وتلبّثُ السماء
مجذّدةً آفاقها. فيتعبُ الطفل وتكلُّ قدماء ولا ينال من بغيته شيئاً.

على أنني ما زلتُ أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت النجوم
تعرفني منذ زمن طويل. كنت في ذلك المساء على ركبتي والدتي ورغم
ذلك سرّى البرد في جسدي وتملّكتني رعشة الخوف - فانبهت لذاتي
الصغيرة انتباهاً غير عاديّ ورفعت والدتي إصبعها مشيرةً إلى النجوم
اللامعة. فدهشتُ وفكرتُ «بأي لباقة صنعت أمي كل هذا!» وعادت
الحرارة إلى جسدي وأظنتي استسلمت للنوم. وأذكر كيف اضطجعتُ
مرةً على العشب الأخضر وكل ما حولي يموّج ويهتزّ ويطنّ ويهمهم.
فاقتربت مني جماعةٌ مخلوقات صغيرة مجتّحة ذات أقدام متعددة وحلّت
على جبهتي وعينيّ قائلةً «نهارك سعيد». فشعرتُ بالأم في أجفاني
وصرختُ منادياً أمي. فجاءت وقالت «يا بنيّ المسكين، ها قد لسعك
البعوض!» ولم أتمكن من فتح عينيّ لأرى زرقة السماء. وكانت أمي
تحمل طاقةً بنفسج نضير فأحسستُ بالأريح المسكّن ذي الزرقة القائمة
يخترق دماغي. ومنذ ذلك اليوم ما رأيتُ باكورة البنفسج إلّا انتعست
تلك الذكرى في حافظتي، فأغمض عينيّ لعلّ السماء الزرقاء القائمة
تخيّم على نفسي مرةً أخرى.

شفيتُ فانبسط أمامي عالم لم أعهدُهُ يفوقُ منه الجمال جمال
الكواكب ويفضّلُ منه العطر عطر البنفسج. وكان صباح عيد الفصح.
فأيقظتني والدتي باكراً فوقفت أنظر إلى الكنيسة القديمة القائمة إزاء
النافذة. لم تكن جملة كنيسة طفولتي، إنما كانت شاهقة جدرانها ذات

منظر مهيب، باذخة قبتها يعلوها صليب مذقّب، وتبدو أقدم جميع المنازل المجاورة ولطالما تمنيتُ التعرف بمن يسكنها فنظرتُ من شبك الباب الحديدي. وأطلتُ النظر مرةً فلاح لي الداخل خاوياً خالياً رطباً مفرغاً وليس تمت نفس واحدة. وصرتُ تملكني هزة كلما مررتُ أمامها فأعدو طلباً للهرب.

ولكن في ذلك الصباح، صباح عيد الفصح، أمطرتنا السماء في الضحى ثم بزغت الشمس في أبهى حلةٍ من الأنوار فبهجت جدران الكنيسة القديمة وتألّق سطحها المصنّف الأشهب، ولمعت نوافذها الكبيرة، وسطعت القبة بسناء صليبيها الذهبي سطوعاً مدهشاً تناول كلّ شيء منها وحواليها. وبدا النورُ السائل من النوافذ الكبيرة حياً متموجاً وهو أبهى من أن يتيسر التحديق فيه. فأغمضتُ عيني. إلّا أن النور العجيب ما زال يفيض على روحي جاعلاً جميع الأشياء لامعةً عطرة ترون وتشد.

خلتُ حياةً جديدةً تنبض فيّ كأن شخصي الأول تبدّل بشخصٍ آخر؛ وإذا سألتُ عن الأصوات الفخمة المتصاعدة من أعماق الكنيسة قالت والدتي إن هذا نشيد الفصح. لم يتسنّ لي إلى اليوم معرفة ذلك النشيد الذي فاضت أنغامه على روحي، ولا ريب أنه من تلك المزامير الرائعة التي تسربتُ إلى روح لوثر الصارمة. ولم أعد أسمعه مرةً أخرى. أما الآن فعندما أصغى إلى موسيقى بيتهوفن أو مزامير مارسلو، أو أجواق هيندل - وأحياناً عندما أسمع الأغاني الساذجة في جبال اسكوتلندا والبترو - أشعر بأن نوافذ كنيسة القديمة تسطع بنور باهر، وأن عالماً جديداً يفتح أمامي أجمل من عالم الكواكب وأعذب من عرف البنفسج.

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي يتخللها وجه أمي
الحنونة وعينا أبي العميقتان، وحدائق وأشجار وعشب مخملي
الخضرة، ودالية تحمل العناقيد الناضجة، وكتاب جليل تملأه الصور
الملونة - التوراة. هذا كل ما أميزه على الصفحات الأولى من ذاكرتي
الذابلة.

لكنّ ما يعقبه واضحاً جلياً. أرى ملامح الوجوه التي اعتدتُ
مشاهدتها وأنا دي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم: أبي وأمي، وأخوتي
وأخوتي، والأصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض الغرباء.

أواه! يا لحلاوة تذكّار تركتُ الغرباء في فؤادي! وبا لعمق موضع
روحي نُقشت فيه أسماءهم!.

بين السائرين يمنةً ويسرةً دون أن يعيروه لفظةً إذن تنهض عاطفة
منسية وتتمشى في صدره ذهاباً وإياباً، ولا يدري أهى حبٌّ أو صداقة،
ويودُّ أن يصرخ لكلٍّ من أولئك الغرباء «ألا تعرفني؟».

إذ ذاك يشعر بأن الغريب أقرب إلى الغريب من الأخ إلى أخيه
ومن الأب إلى ابنه ومن الصديق إلى صديقه، ويدوي في طبقات ذاكرته
صوت مجهول قائلاً إن هؤلاء «الغرباء» أقرب أصدقائنا وأعزهم لدينا
وأحبهم عندنا.

إذاً لماذا نمرُّ بهم صامتين؟ ذاك سبب لا نصل إلى قراره وعلينا أن
نمثل. عندما يمرُّ قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر وجهٌ يودُّ أن
يسمّ حاول مدّ يدك لمصافحة الصديق المبتعد عنك قهراً. حاول ذلك
وجربه وربّما علمتَ لماذا يمرُّ الإنسان بالإنسان صامتاً.

قال فيلسوف قديم: رأيت بقايا سفينة أغرقتها العاصفة عائمةً على

صفحة البحر . بعضها يتلامس ويلتقي إلى حين . ثم تهبّ الرياح فتغرقها شرقاً وغرباً . دون أملٍ في اللقاء . ذلك مصير بني الإنسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من شهد غرق السفينة .

الذكرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جوّ الطفل بل تتبدّد بتدفّقها من عينه دموعاً. لذلك عدتُ بعد أيام إلى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأتيح لي تقيلها. وجاءتني بأولادها الأمراء والأميرات فأنشأنا نتقاسم الألعاب ونشارك في الملاهي شأن الذين يرجع عهد تعارفهم إلى سنواتٍ خلت. تلك أيام هنيئة، لأنني بعد ساعات المدرسة - وكنتُ بدأت أذهب إلى المدرسة - كان لي أن أتوجّه إلى القصر فأجتمع برفاقي وبين أيادينا ما يشتهي قلب الطفل من لعباتٍ ودمى كثر ما أرّنتها والدتي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة قائلةً إنها باهظة الثمن قد تكفي قيمة الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعاً كاملاً. ومثلها كتب الصور الجميلة التي أبصرتُ أبي يقلّبها عند أصحاب المكاتب ويقول إنها لا تُشرى لغير الأولاد الصالحين كلّ الصلاح. ها هي لي الآن في القصر أقرأها وأتمعّن في صفحاتها ساعاتٍ طويلات، لأن كلّ ما يخصّ الأمراء الصغار يخصّني - أو بالحري هذا ما أزعّم. إذ لا تقصر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصبباني عند أصحابه بل أنا مخيرٌ في أخذ ما

أريد منه إلى البيت وفي التصرف به وإهدائه إلى أولاد آخرين. وزبدة القول إني كنتُ إشتراكياً بأوسع معاني الكلمة.

وكانت الأميرة تلبس يوماً أفعى ذهبية التفت حول زندها التفاف الحياة والإحساس. فدفعت بها إلينا لنلهو. وعند الانصراف لويتُ الأفعى حول ساعدي لأرعب أمتي في الظلام. فلقيتُ في طريقي امرأة توسلت إليَّ أن أريها الأفعى، ففعلت فتنهدت وقالت إنها لو ملكتها لخلص بشمها زوجها من غيابات السجن. فلم أتردد لحظة في مساعدتها، ومضيتُ أعدو تاركاً المرأة والسوار الذهبي بين يديها.

وحدثت في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة إلى القصر تبكي وتتحب وقد اتهمت بأن اغتصبني الأفعى. فاستشطت غضباً وصرحتُ بتحسس وحدة إني وهبتها السوار، ولا أروم استرداده. لا أدري ماذا جرى بعدئذٍ. على أي صرْتُ منذ ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أحمله معي إلى البيت.

مرَّ زمنٌ قبل أن تتسع أفكاري فأدرك معنى خاصتي وخاصتك. وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزني دون التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق. وآخر مرة ضحك مني أصحابي لمثل ذلك كانت يوم أعطتني والدتي نقوداً لأبتاع تفاحاً. أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة. فقالت البائعة بصوتٍ خلت حزناً إنها لم تبع شيئاً منذ الصباح وليس لديها من النقود ما ترده إليَّ، وتمنّت أن أشتري تفاحاً بعشرين بارة. فتذكرت أن في جيبي قطعة نقودٍ أخرى من ذوات العشر بارات، وسررت أن أحلّ المشكل بنقدها تلك القطعة قائلاً «الآن تستطيعين أن ترديّ العشر بارات الباقية». فلم تفهمني المرأة المسكينة بل أعادت إليَّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة

كنتُ أذهب كلَّ يوم أشارك الأمراء في ألعابهم وأنعمُ معهم الفرنسية. ومنذ ذلك الحين أرى صورةَ ترتفعُ من أعماق ذاكراتي. تلك هي ابنة الأمير الكبرى الكونتس ماري التي توفيت والدتها إثر وضعها فتزوج الأمير بعدئذ بالأميرة الحالية. تلك الصورة تتصاعد في شفق ذاكرتي بتمهّل وإبهام. فهي في البدء خيالٌ سابح في الهواء يتشكّل ويتكيف قليلاً قليلاً مقترباً مني، حتى يقف أخيراً أمام نفسي ساطعاً، كالبدر يشقُّ عباب الغيوم بعد زويدةٍ شديدة ويرز فينير وجه الليل. كانت الفتاة أبدأً مريضة تتألم صامتة. ولم أرها حياتي إلّا ملقاةً على سريرٍ نَقال يحمله إلى غرفتنا رجلان، ويحملانه منها إذا تعبت وأشارت. هناك كانت ترقد بين الأنسجة البيضاء، شابكةً يديها على صدرها، ووجهها شاحب وإنما مليح معسول، وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما. فأقف حيالها مشئت الفكر، وأحدقُ في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من «الغرباء». فتضع يدها على رأسي وتتملك أعضائي هزةً وألبثُ جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام، وكلُّ قواي تطلُّ من حدقتي على تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما.

كانت تكلمنا نادراً غير أن نظرها يرقب كافة ألعابنا. ولم تكن تتذمّر مهما أفرط في رفع الصوت وإكثار الجلبة. بل تنقل يديها إلى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يستسلم للنوم وتشعر بنحسن صحتها في أيام أخرى فتستوي فوق مضجعها ونرى على وجنتيها نظرة الفجر الباكر فتحدثنا الأحاديث المسلية وتقصّ علينا الحكايات المدهشة. لست أدري كم كانت سنّها على أنها كانت باعتهالها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال، يداريها الجميع ويذكرونها برفق واحترام وينعتونها «بالمملك» ولم أسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة. أما أنا

فكنت أقف خيالها خاشعاً، وعندما أراها صامته بائسة وأفكر في أنها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان إلى مكان بمجرد دافع الإرادة، وإنها ليس لديها من عمل تؤديه ولا مسرة تتمتع بها بل إن سريرها هذا في الحياة إنما هو رمز نعش يضمها في مرقدها الأخير - إذ ذاك أساء نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن تذوق راحة رضية في حضن الله أو أن تحمّل على أجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلاً في الصور المقدسة. ثم أشعر بوجوب مقاسمتها آلامها لثلاث تقاسي وحدها جاهلة أن قربها قليلاً يتألم لها ويحتمل معها. ولكن كيف أبوح لها بما يجول في خاطري وأنا غافل عن وجوده؟ كل ما كنت أعلم أنه لا يجوز لي أن ألقى بنفسي على عنقها لثلاث أسبب لها كدراً وغماً فأكتفي بالابتهاال إلى الله من أعماق قلبي أن يريحها من متاعبها.

أدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وهي شاحبة كلّ الشحوب، أما عيناها فكانتا أشد إيماناً وأبعد غوراً. فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت «اليوم تذكّار مولدي. حبذا العيشة معكم طويلة ولكن قد يدعوني الله إليه في القريب العاجل. ولما كنت راغبة في أن لا تنسوني تماماً بعد رحيلي جئتُ كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظلّ ينقله الى الأصبع المحاذي كلما مرّت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة».

وعمدت إلى خواتم خمسة في أصابعها ففرعتها واحداً بعد الآخر وعلى وجهها إمارات حزن عميق يمازجه حبٌّ ولين. فأغمضت عينيّ لثلاث أبكي. فأعطت أخيها الأكبر الخاتم الأول وقبّلته، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث إلى أختيها الأميرتين، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصغر، وقبّلتهن جميعاً، وكنت أقف قربها محدقاً في يدها البيضاء، محدقاً في الخاتم الوحيد الباقي في إصبعها. ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقى بنظرها ففهمت بلا ريب ما يدور في

خلدي وسمعت ما يهمس به قلبي لأن الحاظ الأطفال شديدة التعبير بليغة المعنى. حزنت لإعراضها ولو حاولت مرضاتي الآن ما رضىت أن أنال الخاتم الأخير لأن التخلف إنما يدلُّ على أنني غريب لا أخصُّها، وإنها لا تحبني محبتها لأخوتها وأخواتها. وصرت متألماً في قلبي كمن فُتح أحد عروقه أو قُطع بعض أعصابه، ولم أعد أدري أنني أوجه نظري لأخفي كربتي.

فجلست من جديد ولمست جبهتي مرسلَةً في عيني نظرة استقصاء واستقراء أشعرتني بأن ما من سرٍّ فيَّ إلا اكتنفته الفتاة وما من فكرٍ إلا قرأته. وسحبت الخاتم الأخير من يدها متمهلة وقالت «وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن البسه أنت فذلك خير وفكر فيَّ عندما أصير بعيدة عنكم. اقرأ الكلمات المنقوشة على الخاتم «حسب مشيئة الله». أما قلبك هذا فقد أفعم حرارة ورقة، ألا فلتروضه الحياة وتنمه دون أن تقسيه!» ثم قبلتني كما قبلت أخوتها وأعطتني الخاتم.

ما أصعب الوصف وما أعطاء! يومذاك كنت أكاد أكون صبيّاً فكيف يتغلّت قلبي من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه؟ كنت أحبها كما يحبّ الصبي - والصبيان يحبون بحرارة وصدق وطهارة قلُّ منهم من يشعر به في الشباب والرجولة - على أنني ذكرت أنها من «الغرباء» اللذين حُرمت عليّ المجاهرة بحبِّهم ولكني شعرت بتقارب روحينا وبتلامسهما بأرق ما تتلامس به أرواح البشر. زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأنني وحيد، ولم أعد أشعر بأنني غريب عنها تفصل بيننا هوة أو مرتبة. كنت معها، كنت قريبها، كانت روحي تلمس روحها، فحسبي.

ثم رأيت استبقاء الخاتم الذي ودّدت أخذه إلى القبر، رأيت

استبقاءه مع حرماناً لها، وتعالى في نفسي عاطفة طغت على كل عاطفة سواها فقلتُ قلقاً عليك الاحتفاظ بالخاتم إن شئت أن يكون نصيبي . لأن ما لك هو لي . فأطالت النظر في وجهي دهشة متأملّة، ثم تناولت الخاتم ووضعتَه في إصبعها وقبّلت جبهتي مرةً أخرى وقالت بصوتها العذب الرقيق «أنت لا تدري ماذا تقول، أيها الفتى، فحاول إدراك نفسك لتسعد أيامك وتسعد الآخرين معك» .

أيتها السيدات

موضوعنا اليوم «غاية الحياة» ولا أعرف كلمة خطيرة كهذه وأكثر تفلتاً من حدود التعريف. إن لفظة «الحياة» في معناها التام تشملُ الكون بأسره مما يُرى وما لا يُرى. وهي ذلك التيار الخفيّ النافذ في كل شيء، المحيط بكل كائن، وقد حوى من الاقتدار والجبروت ما ألقى في روعنا أنه من روح الله. كأننا نحسب الحياة نسماً نور وإنعاشٍ منطلقة من صدر تلك القوة الكبرى التي نسبح جميعاً في بحار جودها ونسميها «الله».

فإذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأتى لنا تعيين غايتها؟ من ذا الذي يجرُّ على تعيين غاية الفلك في دورته، والنجوم في سيرها، والمذنبات في تكوُّنها، والشموس في تشعُّعها واحتراقها، والنيازك في تساقطها على الأرض حجراً سوداء؟ من ذا الذي استشف من البحار غاية المدّ والجزر، ومن القمر غاية الاكتمال والانتقاص، ومن النوع البشري غاية مدنيّاته وأديانه وأنظمتها وكل ما يتقلّب عليه من الأطوار؟ كيف تتحرّى غاية الربيع بحلوله بعد الشتاء، فيتبعه الصيف المتلظي الذي لا يلبث أن يزول أمام الخريف الحزين؟ وما غاية الغصن في تمايله وتجرّده وإيراته، وغاية البذور في النموّ والإنتاج والذبول؟

نحن نعرف بعض الأسباب الطبيعية في الخليفة وما يترتب عليها من النتائج. ولكن لماذا تعمل تلك الأسباب، وما غاية هذه النتائج، وإلى أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء؟ لغزٌ رائع لا يحله الإنسان مهما ارتقى علماً وفضلاً وإخلاصاً.

والإنسان الذي هو جزءٌ من هذا الوجود غير المُدرك، أكثر ما يستعمل كلمة «حياة» ليعني كمية أيامه على الأرض ومجموع أعماله، وكمية أيام كائنات أحاطت به وقد امتاز عنها جميعاً بما أُوتي من إدراك وإرادة وحرية. فالجماد مثلاً لا يتحرّك إلا مرغماً بفعل العناصر كالأعاصير والرياح تقتلع الصخور، والأمطار تنحتها وتفتتها. أو يعامل آليّ كالديناميت يذمر الآكام ويصعق الراسيات. والنبات، وإن تحرّك مع النسيم ونشر شذاه في الهواء وكان له إحساسه الخاص كبعض النباتات التي تنكمش إذا ما لمست، إلا أن أصوله تظلُّ أسيرة أرض تغذيها. والحيوان ينتقل من مكان إلى مكان بدافع الرغبة وبإيعاز الإدراك الذي لديه منه كمية ما. ولكنّ للإنسان وحده قوة التمييز والمقارنة والاستنتاج والإبداع في أتم أنواعها الممكنة. له وحده حرية الانتقال من جهة إلى جهة، والتفكير فيما شاء، وتنفيذ ما أراد. له وحده أن يتصرف بالموجودات التي يعقلها ويعالجها ويستخدمها لحاجته، وهي تمنو له صاغرة لأنها لا تعقله وتبقى دونه مهارة ومقاومة. وإن جمحت يوماً وفكت به ساعة غضب عنجهي، فتلك طوارئ عاديّات كالصواعق والفيضانات والظوفان والأوبئة التي لا تدوم غير وقت ما. ولسرعان ما يهتّب لمقاتلتها واختراع ما يمكنه منها ويقيه شرّها. ولئن خنعت الموجودات إلى النظام الكلّي الذي يسيّرهما قهراً فعاشت عيشتها الصخرية العشبية البهيمية وأدّت وظيفتها المعينة جاهلة صاغرة، فإن الإنسان - وفي ذلك ميزته وفخره - لا يكفي بتلك العيشة الابتدائية

العنصرية ولا يعيشها مرغماً بل سعيداً، مدبراً، مختاراً. وهو فوق ذلك يخلق لنفسه غايات قومية وسياسية وفكرية وقلبية جمّة، تتسابق إلى تحقيق غاية قصوى يوجّه نحوها مجهوداته، ويجمع أعماله في شبه قناة حيوية تنتهي إلى تلك الغاية البعيدة، تلك الغاية المحبوبة التي يخالها تناديه وقد اتخذها كعبة آماله.

عند هذه الكلمة «كعبة الآمال» المرادفة لموضوعنا «غاية الحياة» يقف كل قلب ويزفر زفرة حارة إذ يتساءل: «وما غايتي من الحياة؟ أعرّفها أنا وهل تشعر هي أو تبالي بوجودي؟ ما هي يا ترى؟ أثروة أبتغي حشدها؟ أجاه، أم قدرة، أم حال أنعمُ فيها بجميع أسباب الهناء وأتذوّق خلالها لذائذ الفوز والسيطرة! أمي علم لا أفتأ أذهب في غوره ليكشف لعافلتني حُجُبَ الحياة وأسرارها؟ أمي إرهاب ملكاتي الذهنية والنفسية إرهاباً يرفعني فوق أقراني ويجعلني موضوع إعجابهم؟ أمي تقوى تدنّيني من خالقي وتطمئن بها نفسي؟ أمي شخص أيقظ فيّ حياة الوجدان العجيبة وتمثّلت لي في ذاتة صفات الألوهية المعبودة حتى صرْتُ أستهيّن لأجله بكل عزيز وأجازف بكل مكنون؟ وأين أنا الآن من ضالتي المنشودة؟ ماذا أكتسبي جهاد الأعوام الغابرات، وإلى أين أوصلني ذلك الجهاد الطويل؟ ماذا جنيتُ من الكدّ والتجلّد والرجاء، وبعد دموع أرسلتها وأخرى أمسكتها، وزفرات أطلقتها وأخرى كتمتها؟ أراض أنا عن نفسي وعن غيري، أم أنا كلما خطوتُ خطوة إلى الأمام تفهقرتُ إلى الوراء خطوتين؟ أم أنا كنت أعلّل النفس بشيء فلما صار لي وجدته شيئاً آخر؟ أم أن ما كان يبدو لي حقيقة محسوسة إنما هو خداع فتان كلما جريتُ نحوه ملتصماً، ودنوت منه مستعطفاً، ارتدّ وتباعد كما يرتدّ ويتباعد السراب في الصحراء وعدتُ أنا إلى عذاب محتوم واصطبار جميل؟ غايتي من الحياة السعادة، فهل أنا سعيد؟».

وهنا يقف كلُّ فترة أخرى ويزفر زفرة جديدة سعيداً كان أم شقيماً،
لأنه لا بدُّ لكل قلب من فراغ لا يملأ ومن حاجة لا تسدُّ. ولأن النفس
البشرية تشبه بركة الماء مهما راقّت صفحتها وتلألأ سطحها، حرّكها
قليلاً تتعكر وتكفهر بما ركذ في أعماقها من الأحوال. وفي أعماق كل
نفس آلام ثاوية، وتذكارات جائمة، وجراح صديدة اندمل بعضها على
فساد يكفي أن تلمسها يد أو إشارة لتمضُّها الأوجاع فتعتمد إلى الاستغاثة
والأنين.



إن السعادة غاية الجميع، أما السبيل إليها فمختلف باختلاف
الطبائع. حرّمها الناس طويلاً فازداد شوقهم، واحتشدت في قلوبهم
الكظوم والضغائن حتى لكان الإنسانية تتحرك اليوم فوق بركان نائر.
ففي كل مكان حروب وتقاتل على المنافع، ومن الغريب أن النقيضين
أي بقضة الوطنية وانتشار الاشتراكية يسيران جنباً إلى جنب، والأمم
جميعاً على وجل واضطراب تنتظر من وقت إلى آخر تغير الأحوال،
ووقوع ما كان يرجى أو ما لم يكن ليرجى.

بيد أن الحياة العامة لا تأخذ من حياة الفرد سوى ساعات
معدودات، وفي أشد حالاته تحمساً تظلُّ حياته الداخلية على ما هي
تقريباً. يظلُّ له عوزه الذي لا يغلاؤه الغنى العام، تظلُّ له آلامه الجسمية
والروحية يتجرّع مرارتها ويحتمل من وخزها ما لا يخدّره التهليل العام.
تُرى ما هو تأثير تلك الأفراح الوطنية الجميلة في العليل اليائس، وفي
المعدم الذي ليس لديه ما يسدُّ رمق صغاره، وفي القلب الذي حوى
جمرة تأكل سويده، وفي الصدر الذي اكتظت فيه الغيوم؟ تلك
لمحات ابتهاج تسطع ثم تترك القلب أكثر وحدة وسواداً، والعليل أكثر

أسفاً على أيامه المتتابعة كالأظلال.

السعادة هي الغاية، وما السعادة في حقيقتها وعلى تنوع صورها في الأذهان، سوى تطوّر متتابع نحو حالة تستوفي عندها جميع القوى وسائل النمو والانبساط والظهور كاملة وافية بأقل ما يمكن من المقاومة والألم، هذا إذا تعذر الخلاص منهما على الإطلاق. وهل من تطوّر ونمو بلا عمل؟ لا جمود في الخليقة حيث كل مخلوق، حتى ولو اختفى وراء مظاهر الموت، يؤدي وظيفته ويتم ما وُجد لتسميه. وكذلك كل خلية من خلايا الجسم تعمل لتؤدي وظيفتها. غير أن ذلك العمل الآلي ليس ليغني الفرد المفكر المريد الذي لا تكفيه الغاية العامة في الكون، إنما هو يعمل عملاً خاصاً إضافياً يتفق مع غايته المختارة تتمرّن عليه مجهوداته ويمارس به قواه. تلك السعادة التي يحلم بها لا بد أن يسمى إليها سعياً خصوصياً حثيثاً أريباً في تحنيه وتنشعبه وتنوعه. ومع ذلك ليست كل قيمة العمل في أنه موصل إلى الغاية المقصودة ولكن قيمته المعنوية الكبرى في كونه آلة الاستقلال الفردي وخالق الاحتياج إلى الاعتماد على النفس.

وما هو الاعتماد على النفس إن لم يكن مكيف الذاتية الحرة التي تدرك أهمية احتياج الآخرين إليها وتدرك كونها مخلوقة على صورة الله ومثاله. لأن الله، وهو المبدع الأعظم، خلق الإنسان وأودعه قوى الإدراك والاختيار والابتكار التي لا تظهر إلا في العمل. فهذا العمل الذي يخلقه الإنسان ويتقنه يصبح إلهاً صغيراً. بالعمل يكبر في عيني نفسه وتنسجم حوله هالة الكرامة المفروزة عناصرها من داخله المتشبع ثقةً بكفاءته وإقدامه. بالعمل يرفع رأسه الذي أحناء الطلب والاستنجاد، وينظر إلى الناس كأشياء لا هم فوقه ولا هم تحته بل هم إخوان يعملون في سبلهم المختلفة. وينظر إلى الحياة متفرساً في

ملاحمها بلا وجل لأنه تعلّم في مدرسة الاعتماد على النفس، إن المصائب والمحن والمعاكسات الداخلية والخارجية تعجز عن النيل من قواه الجوهرية، وأن تلك الرزايا إنما هي عناصر اختبار، له أن يستخرج منها دروساً قيّمة ومعلومات جديدة تزيد قوة ونبلًا.

ليس النبيل من ورث نسباً ومالاً فاستخف بالناس والأشياء اتكالاً على وراثته، بل النبيل من خلق نفسه، وما زال بها كل يوم يجدّها بعمله ليخلف للمستقبل ثمرة مجهوداته. النبيل من لا يتظر «الظروف» و«الحظ» و«البخت» تلك الكلمات التي يتملح بها الذليل الخامل، بل ينتهز الفرص ليجعلها صفحات جليّة في كتاب عمره. وما الأيام والساعات سوى فرص ثمينة للنابه يستخرج منها العجائب.



هنا أوّد أن أحصر الموضوع في المرأة، لأن الموضوعات النسائية تستوقفنا بوجه خاص، لنبحث فيها عن نقائصنا ونعرف مواطن ضعفنا فنحاول الإصلاح ما استطعنا إليه سبيلاً.

أما فيما يتعلق بضعف المرأة فأصارحكُن القول بارتياحي منه في المعنى الذي يقصدون. أرسل البحث في شؤون العمران فأجد تأثير المرأة وراء كل عمل مسيئاً من الحوادث ما لا تفسير له بغير كلمة نابوليون «فتش عن المرأة!». وأقلب صفحات التاريخ فأراها في تعاقب العصور ملكة صالحة، وسياسية دقيقة، ومفكرة كاتبة عالمة مصلحة لا يستهان بها، وذات بسالة كبسالة أعظم الأبطال. ذلك على رغم الجور والاستبداد. فلو أبدلناها بالرجل وعاملناه بمثل ما عاملها فحرمناه النور والحرية دهوراً فأبقي صورة هزلية يا ترى يبقى لنا من ذبّاك الصنديد المغوار؟.

على المرأة أن تكون جميلة أنيقة دمثة. لينة متعلمة قوية الجسم والنفس ماضية العزيمة. عليها أن تصون ذاتيتها الفردية بينا هي تصطبغ بصبغة محيطها وتراعي ميوله لتحفظ توازن السرور والانشرح في البيت الذي يحبها وتحبه. عليها أن تأتي بالأولاد وتتعهدهم جسماً وعقلاً وروحاً. عليها أن تكون عارفة بأساليب الاقتصاد والتدبير. عليها أن تحافظ على وفاق الأسرة وسلامها وأن تنشئ علاقات تآلف بين أسرتها وأسر الأصحاب والمعارف وغيرهم ممن تدنيها منهم المصلحة أو أي شأن من الشؤون. فكانها بذلك وزيرة داخلية ووزيرة خارجية ووزيرة معارف ووزيرة مواصلات ووزيرة مستعمرات الخ. هذه الأعمال التي توزع على نخبة من أفضل رجال الأمة وأقوامهم تلقى جميعاً على عاتق امرأة واحدة تقوم باتقانها على قدر المستطاع، ثم يعودون فيقولون إنها «ضعيفة».

صدقوا، هي ضعيفة ولكن إزاء نفسها الفائضة بالعواطف الرجراجة الصاخبة المستعرة، ضعيفة بأعصابها الدقيقة السريعة التأثير وباستعدادها لتشرّب الألم واستيعابه إلى درجة لا يتصورها من لم يكن امرأة. وإنما هو هذا الضعف الذي يجعلها أحياناً أكثر عدواً من الرجل إذ تتناوبها هباتٌ ووثباتٌ تندفع بها كمن يريد التكفير عن قعود مضى أو كمن يخشى عجزاً آتياً، في حين أن الرجل يظلّ منظم السير واسع الخطى كأنه واثق من توفر القدرة والنشاط لديه على الدوام. وإن التمسّت غاية استعملت للحصول عليها فتاً وحذاقاً ليس هو حذق الرجل ولا هو فنه. وكل ذلك ناتجٌ عن تراكم آلامها الوراثة وعن توحّد الغاية في الأجيال النسائية الخالية التي لم تكن تبغي غير الحب والزواج والعائلة. فإن كانت هذه غايتها اليوم انطلقت إليها بقوة ساقّت ملايين ملايين النساء منذ أن وجد النوع البشري، لا تبالي أصادفت وعراً أم

اصطدمت بصخر . وإن تغايرت الغاية سبقت بذات القوة يزكّيها التوقُّ إلى المجهول ولذة الاختلاف والرغبة في النجاح ، فتتوقُّ في عملها ، إن شراً فهي السفاحة ماري تيودور ، لموهي ريثاً وسكينة بطلنا فظائع الإسكندرية . وإن رافةً فهي الأُمّ المفادية والشفيقة العاكفة على فراش المريض تصدُّ عنه الموت وتجلب إليه العافية . وإن حماسةً وفخاراً فهي جان دارك ومدموزال بوستافويتوف البولونية ، أو هي المرأة المصرية تجوب الأحياء مرصعة هواء بلادها بالأعلام الخافقات ، وتهتف بما يستفزُّ الدموع ويستنهض الهمم ويُفهم الرجال شباناً وشيوخاً قيمة الأوطان وعزّ الأوطان وحرمة الأوطان .

ليست الصعوبة في المجاهدة لنيل غاية عزيزة وإنما الصعوبة الموجعة على الرجل والمرأة معاً في عدم وجود الغاية . أوجع شيء للمرأة أن تكون مبهمة المطالب والمستقبل ، أمامها صفحة خاوية خالية ليس فيها بارقة أمل ولا كلمة عزاء . كثيرات هنَّ التعبات اللاتي وقعن فريسة ذلك الشلل المعنوي مولد المجازفة والانحطاط الذي يدعى السامة . فيجرين هنا وهناك هرباً منه مخاطرات بما رجب صونه ، ناسيات ما عليهنَّ أن يذكرنه . ومنهنَّ من لا تطيق البقاء يوماً واحداً بلا زيارات واستقبالات وأحاديث جارات وخالات وعمّات ، كأنها تخاف الاختلاء ومقابلة نفسها وجهاً لوجه فتفقد بذلك أعظم تعزية وأعظم أمثلة في الحياة . وإن أحسنت القراءة دفنت سآمتها في الروايات دون أن تفقه ما فيها من مفزى اجتماعي أو أخلاقي ، مكتفية بتتبع الصلة الغرامية والاستسلام إلى ما يديه أبطال الرواية من انفعال اصطناعي مضخم ، جاهلة أنها بتطلُّب ذلك التحريض القهري تطفئ نور ذهنها وتضعف من نفسها جميع القوى حتى قوة الحب الذي ينتقم من مهيبه ومزيفه انتقاماً صارماً .

ما أعظم الحب وأشرفه، أينها السيدات، في القلب المتبصر الحكيم! هو أقدر عامل ينهض بالإنسانية مسهلاً طريقها، مخففاً أثقالها، خالقاً من أبنائها الأبطال والجبابرة. وأجمل الأرواح وأكبر القلوب وأنبّل النفوس إنما هي تلك التي يظلّ فيها نهرُ الحبّ دائم الفيضان وتظلّ تبعث شعاع شمسها الداخلية إلى ما وراء الفرد والبيت والوطن فتتمتدّ على كل شيء وتضيء كل شيء. الذي يحبّ كثيراً يفهم كثيراً. لأن الحبّ أستاذ ساحر نتعلم منه بسرعة ويفتح لنا رحب الآفاق يهتّم فيها صوته المحيي الذي لا تسكنه أصوات الأفراح والأحزان.

ولكن كم نصغره ونحقّره عندما نحصره في الموضوع الواحد الذي تدور حوله الروايات والأشعار الغزلية ونسى أنه الرابطة الكبرى، كدت أقول الرابطة الوحيدة، بين أجزاء الكون وبين الإنسان والموجودات، وأنه هو وحده دواء السّامة الناجع وبلسم التعزية الفعّال.



وكيف نتناول ذلك الدواء ونتغذّى بذلك القوت الإلهي؟ السبيل واحد لا ثاني له، وهو العمل. العمل الذي ينير العقل، ويفتح القلب، ويملأ الوقت، ويحبو الحياة طعماً لذيذاً، ويروّج النفس الواجمة، ويرضي الطباع الساخطة، ويصرف العواطف المتلازمة في منافذ ومخارج حسنة العائدة على المرأة الواحدة وعلى من يلوذ بها. فلتعمل المرأة أي عمل ينتظر بدأً تقوم به وكل عمل تشعر من نفسها بميل جديّ إليه. وسواء كانت مشغلة لتعيش أو لتلهو، لا فرق بين نوع العمل من علم وفن وخياطة وتطريز وتدبير منزل أو بيع في المخازن، فالأمر الجوهري هو الاجتهاد ووضع قلبها وفكرها في ما تعمله لتتقنه وتكبر به

مهما كان صغيراً حقيراً. ولكن لفظة الحقارة لا تصلح لمعنى العمل لأن كل عمل شريف في ذاته، وليس منظف الشوارع بين الغبار والأقذار بأقل أهمية من الرجل العظيم في قصره بين التهليل والإكبار، ولا هو أقل نفعاً لأُمته وللإنسانية.

إذا أُحِبَّت المرأة ذاتها حبّاً رشيداً كانت لنفسها أباً وأماً واختاً وصديقةً ومرشدةً وأمنت ملكاتها بالعمل وضمنت استقلالها بكفالة عيشتها. لأن الأهل الذين تتكل عليهم قد يموتون، وللأخوة والأخوات عائلاتهم وسبلهم في الحياة، والأصدقاء يتغيرون وينسون، والثروة الطائلة قد تنقلب هباء، أما هي فلا تخون ذاتها ولا تنسى ذاتها ولا تفقد ذاتها. والثروة كل الثروة في الإباء والاستقلال الفردي وتعاطي عمل ما بجِدٍّ واهتمام وبراعة. والأعجوبة أن هذا العمل الذي نباشره هرباً من الملل، ورغبة في قتل الوقت، لا يلبث أن يصبح ذا شأن كبير ويعين لنا غاية عظيمة مشيراً إلى وسيلة الحصول عليها. بل لا أعجوبة في ذلك ما دام العمل الكبير مجموع تفاصيل صغيرة دقيقة. أليس أن الجوامع الأثرية البديعة، والمآذن الهيئة الباذخة إنما برزت وثبتت بتناسق الحجر قرب الحجر؟ أوليس أن العَلَم الذي تنفياً بظله أمانى الأمة ورغباتها إنما نُسج من خيوط واهية يكاد يكون كل منها بلا أهمية في ذاته؟.

كذلك فلتكن مجموعة أعمالنا غاية جليلة نقوم بها عاليات الجباه تحت أكاليل العزم والجهاد، وقد اختفت من عيوننا خيالات الخضوع والمسكنة، وحلَّت محلها نظرة من هي لم تعد عبدة المجتمع، ولا عبدة الحاجة، ولا عبدة الرجل، ولا عبدة قلبها وهو أعظم جائر مستبد. بل نظرة من أصبحت سيدة نفسها تطيع مختارة، وتعمل مختارة بهدوء من فاز أو قدَّر له أن يفوز في الحياة. فتكتشف عند كل خطوة

جمالاً جديداً وتفرح كل يوم كأنها خلقت خلقاً جديداً.

بقي عليّ أن أشكر لجمعية «فتاة مصر الفتاة» دعوتها الكريمة التي مكنتني من الاجتماع بكنّ أيتها السيدات وأجازت لي التعبير عن أفكاركنّ. في الظاهر كنّت أنا المتكلمة. ولكنكنّ تعلمن أن ما يفوه به الفرد فتحسبه نتاج قريحته وابن سوانحه، إنما هو في الحقيقة خلاصة شعور الجماعة تتجمهر في نفسه ويرغم على الإفصاح عنها. وإنّي لأغبط بهذه المحادثة الصغيرة، وأهنئ مصر ببناتها العاملات المدركات معاني الحياة، وكلكنّ هنا ذوات أثر في بيتكنّ وصاحبات فضل على قومكنّ. إننا نجتاز أياماً عظيمة تهزّ النفوس إلى أعماقها وتلفتها إلى ما لديها من المواهب والممكنات. ألا فلنكن أهلاً لهذه الأيام بدروس نكتسبها من مرورها! ولنكثر من التمني لأن ما نتمناه واقع لا محالة، وأنا من المعتقدين أن مجرد الشوق إلى أمر والرغبة فيه كثيراً ما يكونان إنذاراً بوقوعه المحتم. والآن أعلم أنكنّ تنقمن عليّ جميعاً إن لم أضف كلمة أخرى هي بلا ريب حائمة في قلوبكن.

إن المنادين بحقوق النساء في فرنسا قد سمّوا أنفسهم أحفاد «كوندرسيه» الفيلسوف الفرنسي الذي دعا إلى المساواة بين الجنسين. وقد اتخذوا ذكرى وفاته في ٢٩ مارس من كل عام عيداً يحتفلون فيه بتحرير المرأة. وفي هذا الأسبوع الأخير من شهر أبريل ذكرى وفاة زعيم النهضة النسائية في هذه الديار وأحد مؤسسي الجامعة المصرية التي تجمعن الساعة جدرانها: قاسم أمين. فمن واجب العرفان بالجميل أن نحیی تلك الروح التي احتضنت في رحابها روح المرأة الحائرة. وأن نستحضر ذلك النظر الذي نفذ إلى قلب المرأة فأحبها في ضعفها وفي ضلالها، وفي تغطرها، وفي حقوقها المهضومة وفي مواهبها المنسية. وأن نتلمس تلك اليد الروحية التي خطت يوماً

صفحات الدفاع عن المرأة ودلتها على طريق العمل القويم والاستقلال النفسي الذي هو دعامة كل استقلال صحيح دائم .

صاح قاسم في القوم يهديهم ولكنه لم يفتئ أن تحرير المرأة في يدها أكثر منه في يد الرجل وأن العمل ألزم الأشياء لها . وأعظم ما يكرم به الحي راحلاً عزيزاً هو الاهتداء برأيه والتمشي مع ما حسن من مبادئه . ولقد تغذت فتاة مصر كل هذه الأعوام بروح قاسم فبرزت نبيلة ذات عزم وإقدام كما كان يصورها له المستقبل . لذلك كانت أجمل زهرة نضعها اليوم على ضريحه هي زهرة الشكران . وكانت أصدق تحية نوجهها إليه هي هذه التحية المزدوجة :

فليحي زعيم النهضة النسائية !
ولتحي المرأة المصرية ناهضة عاملة ! .

الساعة المفقودة

جعلها أرباب التجارة حليّة نسائية، وأنقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشرى.

صورة مصغرة للكون، كذلك كانت ساعتني. مساحتها رمز للفضاء، دورتها مرشح للانهاية، حدودها حدود الإمكان، علاماتها مقاطع الوقت الذي ربّه الإنسان، ساعاتها مقياس الأعمال، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال، ثوانيتها دقات القلب... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تُنسج الحياة نسجاً.

فيا لهول ثواني الزمان، ويا لهول نبضات قلب الإنسان!

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى: الماء والنار، فتميد الأرض بمن عليها، وتتفطر أساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة زفرتها القنّاء فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرخبةً بينها. تفتح صدرها مرخبةً فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً.

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الرغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح. ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندكُ عروش وتنتصب عروش، تدمر ممالك ويعمر سواها، تخرب مدائن ويشاد غيرها، تتجندل أفراد وتفنى مجاميع فترتدي الأقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان.

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا بأس، تبسم شفة وتدمع عين، يخون صديق ويخلص عدو، بين الثانية والثانية!

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار. دماءٌ داخله إلى القلب ودماء منبثة منه، تنهافت عليه جرائم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان. اشتعال الفكر وخمود العاطفة، ظفر البلاهة وتفهم النبوغ، لذعات الغرام والحسرات العظام. قنوط ورجاء، سعادة وشقاء. هتاف الروح المسلمة ولهات الروح المودعة!



يا ابنة أبيك! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء، ويخوننا يوم الصفاء، ويهجرننا حين اللقاء. فأنتِ غادرةٌ خائنة هاجرة كالزمان، يا ابنة الزمان!

كم من ساع طيبات وقعت مرورهنّ على دوران عقربك وفكري يناجيك بأحاديث هداة وضلالة! أبسمُ لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبسمين وأنتهد حيالك يوم الأسى فأتوسمك تنهدين وتحزنين، وكأن عقربك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين.

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بكِ على ساعدي قائلة «أنتِ الصديقة التي لا تخون». ولما مزقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة «أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين». ولما أذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته نظرتُ إليكِ قائلة «أنت عالمةٌ لذلك تصمتين».

وكنّتِ تعزيتي!

وكنّتِ زمانِي، يا ابنة الزمان!

وعلى هذا ما كان أطول إغراضك عني وأقل اهتمامك بي! في النهار كنتِ تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة المداعبة. وفي المساء كنتِ تستريحين بجوار وسادتي فأوقع عليّ موسيقاك الساهية الحان أحلامي وآمالي، وفي الصباح كنتِ أول عين أشاهدها وأول روح أستجوبها.

كل ذلك وأنت لا تتبهين ولا تعلمين.

وها قد هجرتني. فقدتُكِ وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني!

ولكن انتخبي اليد التي ستطوفينها!

فإذا وقعتِ في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أحاً له فانقليني أفعى لساعة ولا تبرحي مفرغةً فيه سمكٍ حتى تصرعه قتيلاً.

... لكن لا، لا! ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم، لو كنتِ تعلمين. وهم خليقون بالرحمة أكثر من الأخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أبٍ فقير لتكوني من نصيب فتاةٍ لم تلبس

في حياتها حلية . زيني يداً شوّعت خشونة الخدمة جمالها ونامي على
زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبُّب! نامي هناك واسعدي، ولو
ساعةً، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى! .

نامي هناك وانسيني، ولكن! .

إن كان لديك ذاكرة تذكر، يا ساعتِي الصغيرة المحبوبة، اذكري
لحظة ما شهدتهِ معي من المسرات واللهفات، اذكري واحفظي ما
تعرفين! .

ولكن... ألسِ ابنة الزمان الذي ننسبُ إليه في ضعفنا كل شيء
وهو في قوّته لا يبالي بشيء؟ ترين بأي حافظة تذكّرين، وبأي ذهنٍ
تتأملين؟ إنما علاماتك مدادٌ قد تحجّر، وعقربك أصبعٌ يشير إلى علامةٍ
يجهل منها المعنى، وأنت آلة ليس إلا، وإن كنتِ آلة الآلات المثلَى .

أنت ابنة الزمان الناسي،

وأنتِ مثله لا تذكّرين! .

ميّ

رسالة من باحثة البادية إلى مي زيادة:

إلى الأنسة ميّ

عزيزتي ميّ،

لا تستغربي يا سيدتي إنني دعوتك «يا عزيزتي» وسأدعوك باسمك على غير معرفة شخصية سابقة. أقول شخصية وأحدها لأنني عرفتُك من كتاباتك الشعرية الجميلة من قبل وتعرفت منها بروحك العالية الهائلة في الفضاء وكأنها تبحث عن مستقرٍّ لها فلا يكاد يعجبها مكان تستقرُّ فيه.

وتعرَّفْتُ بك بالأمس بل وارتبطت بكِ من دعائك عليّ بالعذاب المعنوي كأنني أنا المعنية بقول جميل:

وأول ما قاد المودة بيننا

بوادي بغيض يابِثينُ سبابُ

وقلنا لها قولاً فجاءت بمثلِه

لكلِّ مقالٍ يا بَـثِـنَ جوابُ

وإنما حاشا أن يكون دعاؤك عليّ سبأً وحاشا أن يكون له جواب عندي من مثله فإني لم أقابله إلا بالضحك والحلم الذي ركب في غريزتي .

لماذا يا مِيّ تدعين عليّ بالعذاب المعنوي؟ ألا إنما العذاب البدني أخفّ منه وطأةً وأعفى أثراً. على أنني جرّبت كليهما وذقت الأمرين منهما معاً. تقولين «لأنه النار المقدسة». نعم لقد أعطاني من القداسة مقداراً أكثر مما يجب لمثلي حتى جعل البون بعيداً جداً بيني وبين هذا العالم غير القديس .

تقولين «إنه النار التي تطهر». حقيقة إنه تلقى وجداني بالتطهير منذ أن كان لي وجدان حتى صيرّه شفافاً يظهر كل شيء ويتأثر لأقل شيء وهذا فيه من الضنى والخطر ما فيه .

تقرّرين «إنه النار التي تحيي». نعم يا مِيّ. إنه أحيا روحي حتى أحرّقها لأنه كان كمصباح سيّال كهربائه شديد ولكن فتيلته ضعيفة لا تحتمل .

هو «النار التي تليّن» هذا ما أبديت. ولكن ألا تعتقدين أن اللين قد يؤذي ولا يفيد. خصوصاً في هذه الدنيا التي كلها صدام وعراك وأنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد. إنه الآنني حتى صيرني ماء. وما أشد عبث الطبيعة والناس بالماء مع أنه أصل الحياة!! .

يصبّونه فينصب ويريقونه فيختفي في الأرض ويضعونه في كل آنية معوجة وملوّنة فيأخذ كل شكل ويصطبغ بما يراود به من الألوان. تبخره الطبيعة زارية هازئة فتارة ترفعه إلى السحاب وطوراً تقذف به إلى الأرض وآونة تعاكسه بصقيعها فيتحول برداً، وآونة تحمي عليها براكينها

فيخرج ملتهاً وحيناً تخبث رائحته بكبريتها وزرنيخها فيلعنه الناس إذا أحسوا منه غير ما يريدون وهو بريء. ثم اليس هو رمز الطاعة والامتثال يضعون فيه سكرًا فيحلو ويذيون به الحنظل فيمرّ. وهم مع ذلك لا يقيمون له وزناً ولا يعترفون له الجميل. وهو بلا ثمن في أكثر بقاع الأرض وأرخص الأشياء في أقلها. إنه مثلي يا ميّ يذهب ضياعاً.

وختمت حسن تعليلك لعذابي بقولك «إنه النار التي ترفع النفس على أجنحة اللهب إلى سماء المعاني» الخ.

نعم يا ميّ إنني الآن على أجنحة اللهب ولكني لم أصل بعد إلى السماء وإذا وصلتها فلن يعود العالم يراني فهل يا ترى ستعجبني السماء؟ إنني أشك في ذلك. أني أول ما حفظت من الشعر حفظت المراثي وأولها رثاء الأندلس. وكنت في حدائتي أقرأ كثيراً ديوان المتنبي وأعجب بروحه العالية وبنفسه الكبيرة وأظنه هو الذي عداني في ذلك وسَمَّ آراني، رحمه الله إنني ألدّ كثيراً بهذه العدوى.

وقد قال لي أخي مرة بعد حديث كنت أشتكى له فيه الدنيا وأهلها وأقول «لعل الله يجزييني على هذا في آخرتي بالجنة».

قال متهمكاً «أنا واثق يا شقيقتي أن الجنة أيضاً لن تعجبك لأنه لا يكاد يسرك شيء». أستغفر الله.

إنك يا ميّ خالفت المؤلف في التمنيات والمجاملات الفارغة وهي كثيرة وشائعة جداً الآن (بمناسبة عيديّ الميلاد ورأس السنة المسيحيين). قلت «ابتسمي له» أي لدعائك «إن شئت وإلا فلا تصني ولا تسمعي واسأليني عما أهمس به لأجيبك أني أحمد الله على إبلالك وإنني أسأله أن يديمك سالمة» الخ.

لا يا عزيزتي إنني أكره الكذب والمجاملات الفارغة ولذلك
أصغيتُ وسمعتُ وابتسمتُ (حسب أمرك) وتسرنني جداً صراحتك حتى
في الدعاء عليّ.

أتدريين يا مميُّ أن ذلك اليوم الذي تمثَّيتِ لي فيه العذاب كان فيه
عيد ميلادي أيضاً وإني تغاءلت خيراً بدعائك وافتتحت عامي الجديد
بالضحك من تمنيك وبصداقتي لك تبعاً لذلك التمني المعكوس. أشكر
لك يا عزيزتي أمانيك لي ورغباتك الصادقة وأقرّ لك أنني واقعة فيما
رجوت لي والحمد لله ولكن يا مميُّ لا أتمنى المزيد. إنه عذاب طاهر لا
يتعدى الميل إلى السكون والشعور بشيء من الحزن الشعري الجميل.
ولكنه والله المنة والشكر لا تخامره شائبة من الندم ولا من الأسف الأثيم
وأخشى أن يزيد ضرام النار التي طلبتها لي فأحترق يا مميُّ أو أصل إلى
ذلك الحد الذي لا أريده لنفسي ولا أظنك تريدينه لي.

الساعة المفقودة

عجيب يا سيدتي أنك تريدين عذابي وأنا أريد هناعك. أتدريين
ماذا سألقيه عليك فيفركك؟.

إنني وجدتُ ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقه
فجئتُ لأمسح دموعك لأنني أحبُّ دائماً أن أمسح دموع المحزون.
تعالني إليّ لتأخذها وتستغفريها من وصفك إياها بالغدر وبعدم
الإحساس. فلإنها أحسَّت بشوقي لرؤيتك فأنت مقدمة لمجيتك
ولتعارفنا.

إنها بثَّت إليّ ما كنتِ تشكينه إليها من العواطف والآلام. عثرت

عليّ وعثرتُ عليها لنكفي قلبك شرَّ الفناء من الوحدة ولنؤكد لك أنك وجدت «الصديقة التي لا تخون».

حكاية الرجل

والآن فلنعد إلى حكاية الرجل .

عجيب جداً يا سيدتي أمر هذا المخلوق الغريب الأطوار الذي يسمى «بالرجل» . إنني أعتقد أنه كريم شجاع وله قلب حساس ولكني أظنه (وبعض الظن إنم) أنانيًا قبل كل شيء ورأيي أن أنانيته وحدها هي أصل رذائله فهو يهضم حق المرأة ويستعبد لها لا لأنه ييفضها أو يتمنى لها السوء ولكن ليلهو بها وهو يحبها . ويموت لأجلها لا لأنه يحبها ولكن ليلهو بها وهو في كل ذلك واسع الحيلة قوي الحجة فيقنعها فتصدقوه وهو كذوب .

أما المرأة فهي دائماً تحترمه وتحبه لأنها تحبه صادقةً وإذا كرهته كرهته علانيةً ولم يكن لذلك البغض من دواء . عرف ذلك أبو الطيب فقال :

وإن حدثت لم يبقَ في قلبها رضاءً

وإن رضيت لم يبقَ في قلبها حقدُ

هي صادقة مخلصه دائماً حتى وهي خاطئة . هي تحبُّ لتفنى في الحب ولكن الرجل يحب ليعيش متمتعاً بالحب . هي تحزن وقت المصاب لتفرغ للحزن ، ولكن الرجل لا يحزن إلا ليجت عن تعزية وسلوان .

المرأة كدودة القز تفرغ حريرها لتموت . إنها تعلم أن حريرها

الذي تقدمه للملا زينةً وحليةً سيقتلها ولكنها لم تحاول قط الخلاص منه .

أما الرجل فهو كالنحلة ينتقل من زهرة لزهرة متروصاً وقد يطبل المكث على زهرة ناضرة وإنما ليمتص منها نضارتها وماء حياتها . إنها تحب الأزهار حيناً ولكنها تلهو بها أحياناً فتركها هشياً . وهي تقدم للناس عسلاً فيه شفاءً لهم وشمعاً نافعاً ولكنها تعملهما لغذائها وسكنها قبل كل شيء .

ظلمنا الرجل حقوقنا لا لأنه كان ينوي ظلمنا وإنما هو أخطأ كثيراً في حسابه إن ما يزيد في قوتنا يُضعف من قوته هو . لعلّه ظنّ أن مملكتنا واحدة ولذلك نظر إلينا نظر الدعيات الثائرات . وإنما نحن نريد له السعادة والمزيد من القوة في مملكته ونرجو منه أن يفكّ عنا الخناق في مملكتنا المستقلة التي تشدّ أزره ولا تفكر في إضعافه قط مهما بلغت من العزة والقوة . إننا نتقدم إليه كأننا ساعده الذي يُريد أن يخدمه لا كأننا يدٌ غريبة تريد أن تضربه . إننا منه وهو منا فليطب نفساً وليقرّ عيناً وليعطنا ما نشاء ! .

وإنما نحن يا مِيّ ضايقناه في بعض شؤون مملكته حتى ظنّا نريد منازعته فيها . لنترك له السياسة التي يحبها وحمايتنا . وأقول لك همساً «إننا لا نفع بدونه ولكنه هو أيضاً لا ينفع من غيرنا» ! .

إن المطالبات بحق الانتخاب وإن كنّ يطلبن حقاً إلا أنهن ظالمات الرجل وأنفسهن معاً . لماذا يرمي من مشاركته في الجلوس على كراسي «البرلمان» ولا تقدّم واحدة منهنّ صدرها للقاء كرات المدافع ونصال الفناء في الحرب . الحق أحق أن يتبع .

ليهنأ الرجل بمملكته . إنا لا نهزُ عرشه ليتداعى إلى السقوط كما
تقولين ولكنا نهزّه لنطلب منه . . . «الدستور» .

باحثة البادية

الطبيعة المعمرة المدمرة

بتلك الشجيرة الخضراء كنت أزيّن ردهة الاستقبال كل يوم عيد وكل يوم اجتماع.

وفي أحد الأمساء، وقد خرج الزائرون، سمعنا جلبة سقوط وتكسر؛ فسارعنا، فإذا الهرة البيضاء واقفة في الظلام وقد دهشت لما نرج عن تلك القمزة الواحدة من قمزاتها العديد.

وكان الإناء الخزفي قد انقلب وتحطم فتبعثرت أجزاءه؛ وانفصل عنق الشجيرة المليح عن جذعها وتجدل بعيداً كمن يعلم أنه صائر إلى لا شيء، بعد الذبول والجفاف، مع وريقات أنيقة لصقت به فتخللت خضرتها تلك الخطوط الدقيقة من حمراء وبرتقالية وفستقية وصفراء. فجمدت جمود الأسف.

ثم وضعت العنق الطويل وما انتشر عليه من بهيج الوريقات في أنية طافحة بالماء، لعله يستبقي حسنه أياماً أخرى أو ساعات. وأحكمت الجذع وما تشبّث به من متراكم التراب في إناء خزفي جديد، وجعلت له مكاناً توفر فيه الهواء والنور والحرارة.

وما انقضى أسبوع وجاء آخر إلا وبدت طلائع الوجود في ذلك
الجدع المجذوع، وأسفرت عند جوانبه بسيمات خضراء.

فزدت تعلقاً به وحرصاً عليه، أرقب فيه تفرّع قدود الأغصان
وتكوّن صور الأوراق؛ ولم يعد ينتظر سوى مرور الأيام لينمو ويتكامل.

فوقفت أعجب به ذات صباح وهتفت قائلة:

- «بورك بك، أيتها الطبيعة السخية الوهوبة! ما أنلفت يد الضياع
ودمرت إلا رمنت يد العطاء منك وجدّدت. سرّدت إلي بفضلك شجيرتي
الحسنة، أضعها في صدر الردهة فتبدو لي الردهة بها إيواناً صغيراً.
بورك بك أيتها الطبيعة المليّة الشفيقة، لأن إشارتك الأخيرة هي دوماً
إشارة البذل والبناء!».

في هذه اللحظة أقبلت طفلة الهرة المولودة حديثاً تفتح عينيها
المغمضتين للتعرف بما حواليتها. وما لبثت أن لمحت الآنية الخزفية
أمامها: فمدت إليها يدها الصغيرة وقمزت إلى حافتها تشتّم وريقات
النبته المتجددة.

... ترى، أناهي البنت ما سبقتها الأم إلى فعله؟

بكاء الطفل

سمعت الطفل يضحك فاختلجت روحي الأثيرية في جسدي
الترابي. إن صوت هذا الرضيع ليرجع صدى أصوات الملائكة،
وضحكت البرينة المطربة لتحث المفكر على اكتناء الأسرار الأزلية
الغامضة.

ثم سمعت الطفل يبكي فهلع قلبي فرقاً وشعرت بشيء كبير يذوب
فيه. أواه من بكاء الأطفال، إنه أشد إيلاماً من بكاء الرجال!

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تنحدر على وجتيه
الورديتين، فكانت تلك اللآلئ الذائبة جمرات نار تكويني.

ظل الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم.
ظل يبكي بكاء متروك منفرد لا يحبه في الدنيا أحد. الطفل الحبيب
يبكي فكيف أعيد التآلق إلى عينيه؟ كيف أسمع في ضحكته صدى
أصوات الملائكة مرة أخرى؟



فدنوت منه متوسلة،

وضممته إلي بذراعي التي لم تضم يوماً أخاً أو أختاً صغيرة،
وأجلسته على ركبتني حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء، ورفعت
عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما هي تلمس شيئاً
مقدساً.

... ثم وضعت على تلك الجبهة شفتيَّ ساكنة في قبلة كل ما
يحوم في جناني من شفقة وانعطاف. ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة
بمقدار ما يفعل الطفل الباكي؟.

صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحاً تناجي روحه. صمت
هنيهة، ثم عاد فحدّق فيَّ بعينين ملوهما الحزن والتعنيف معاً. أتعرفون
كيف نعنّف أحداق الصغار؟ حدّق فيَّ سائلاً عن أعز عزيز لديه، وقال
بصوت هاديء كأصوات الحكماء: ماما، ماما.



صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين، يا أم الصغير؟ لست بالعليلة
لأنني رأيتك منذ حين تميمين بقدك تحت قبعتك، والجواهر تطوق
العنق منك. أنت صحيحة الجسم، فلماذا لا تسرعين؟ ألا تحرق
دموع الطفل الذي لا ترين؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين؟.

عودي من نزهاتك الطويلة، وزياراتك العديدة، وأحاديثك
السخيفة، عودي واركمي أمام الصغير واستمحيه عفواً.

لقد خلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء، وكيفتك الطبيعة أما قبل
أن يجعلك الاجتماع زائرة.

تعالى اسجدي أمام السرير، سرير الصغير!

اسجدي أمام هذا المهد الذي لعبت بين ستائره طفلة، وحلمت به فتاة، وانتظرت زوجته، فما خجلت أن تهمله أماً. اسجدي أمام المهد فإن المهد محبتك القصوى!

اسجدي أمام السرير، ولا تدعي رب السرير يبكي لثلاث تملأ قلبه مرارة الوحدة، حتى إذا ما شبَّ رجلاً تحولت المرارة كرهاً وصرامة.

اسجدي أمام السرير وناغي الصغير! إن دموع الأطفال لأشد إيلاماً من دموع الرجال.

دمعة على المغرد الصامت

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود، وما أتعس القلوب الشديدة
التأثر!.

يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتشقق بوطة جلايبها
وتنتشر وريقاتها. كذلك تكفي ملامسة الألم النفس المنفردة ليثير منها
الأشجان ويستقطر من محاجرها العبرات.

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر، ومن النساء
من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر.

أما أنا فلا هذه العطايا تغرني ولا تلك المواهب تستهويني. شيء
واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من
الفكر وقسم أكبر من القلب. شيء واحد ينبه إعجابي وهو ما كان
مترفعاً عن الصغائر والدنايا - هو زهرة نادرة المثال، شمس الذكاء
والمعرفة تحيها، ومياه العواطف العذبة ترويها.

ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح في ثنياه!.

العبودية والرق

من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض : تجعل الأكمة الجرداء قرب البحر الزخري، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحارى وقحط القفار. حيال الذروة الأرستقراطية يزينها تاج الملكية تحفر البطاح لسيل العبودية الجراف حيث تنزف السجايا وتلاشى المكرمات. ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً، وما جادت بنابه إلا بلت بمعتوه، ولا سلّمت بوليده إلا ودّعت بصريع.

ألا إنما الحياة غنية بالمال والذكاء والكرم والصلاح والحب والجمال والفخار. على أن في كفتها الأخرى ما يعادل الأولى من شقاء وفقر وخمول وقبح وكره وانحطاط. كأنها مرغمة على حفظ النظام في توازنها، إذا هي أسرفت في نقطة تعقبت الإسراف بالافتصاد في ما يحاذيها. فحيث يمتد الرخاء تنتشر التعاسة، وحيث يكثر الخير يقل، وحيث يتغلب قوم يندحر قوم. هنا القصور والصروح والأواوين وهناك الأكواخ والخصاص والزرائب. حتى الصحة ذاتها قتل متتابع، وكأن نفس الطفل البريء معمل هلاك يفتك بمكروبات لو انتشرت في جماعة لأودت بهم.

ترى هل امتداد الكون المهيح مسافة محدودة إن نحن رأيناها لا
تُحدّ فلنقصر النظر، وقواه كمية معدودة إن نحن زعمناها لا تُعَدُّ فليضيق
الإدراك؟ هذا سؤال يخرجنا من الاجتماع والتاريخ لتدخلنا محاولة
الجواب عنه في الفلسفة واللاهوت، وما نحن منه إلا في دائرة تبتدىء
عندها الأبحاث حيث تنتهي.



كتاب «مانو» هو أحد كتب الهند المقدسة وقد حوى شرح مذهب
البراهمة وتاريخ مدينة الآريين منذ نشأتها، فجاء فيه أن أصل العبيد
سبعة: أسير الحرب، ومعدم رضى لمن يكفل معاشه، وابن العبد
المولود في بيت المولى، والفرد مهدى هدية أو مبيعاً بيعاً، والمتقل
بالإرث من الوالد إلى الولد، والمستعبد عقوبة على جناية ارتكبها،
والمستعبد لعجزه عن تأدية دين أو ضريبة أو غرامة. وسواء ألم هذا
الإحصاء بكل الأصول أو أغفل بعضها فالعبودية قديمة كالحرب،
والحرب من خواص الخليفة. لقد حاذت طبقة العبيد طبقة الأحرار منذ
فجر العمران وكأنها في تلك المحاذاة تقول:

هَمْ جيرة الأحياء أما جوارهم فدان، وأما الملتقى فبعيد.

وكيف «يلتقي» إثنان يمتلك أحدهما الآخر امتلاكاً لا يختصر على
تضييق الحرية الشخصية شأن الرجل مع المرأة والمؤدّب مع التلميذ،
وإنما هو حذفها ليصير العبد آلة خضوع وعمل، تُحصى من متاع
المالك مع المواشي وما شاكلها.

مأساة دهرية يتألم لذكرها القلب الشفيق، بيد أن المؤرخ المفكر
يراها فجراً محصصاً في ليل الهمجية، وأول بادرة من بوادر الرفق من

حيث إدراك وجوب الاحتفاظ بحياة المغلوب والحرص عليها. هي دليل التقدم وإن نَسَبها هربرت سبنسر إلى الشيع بتقريره أن أول العبيد هم أسرى الحرب، وقد جرت العادة بأن يأكلهم الغالب في ولائم النصر. وأنه عندما كثر عددهم أُجِّل قتل بعضهم للتلذذ بلحمانهم المشوية في وليمة آتية ليصير النصر الواحد نصرين. فاستخدموهم خلال هذه الفترة فانتبهوا للحال إلى أن حياة الأسير أنفع للغالب من موته.

وعلى كلِّ فإن الإبقاء على الأسرى يظل كبير الأهمية لإثباته بأن النوع، حتى في تلك الهمجية القصوى، ذو نظرة صائبة وإرادة قوية تمكنه من ممارسة الأبيقورية قبل ولادة أسلاف أبيقورس، فيضحي اللذة الصغيرة للحصول على لذة أعظم. . . وأهميته الكبرى في إيجاد العبودية وهي الفارق الأول للدرجات الاجتماعية، والمرتبة الأولى لتقسيم العمل الذي قامت عليه دعائم الحضارة. فلولا إناطة الأعمال الدنيا بأولئك القوم ما تفرَّغ المحارب لبسط سلطانه، ولا أبدع أعوانه ما تستلزمه فنون الحرب وتؤدي إليه من عمل زراعي وصناعي واقتصادي وسياسي. ولولا ذلك التقسيم وهذا الإبداع ما ظهرت الحقوق والواجبات، ولا كانت النُظُم، ولا توَصَّل البشر إلى تخزين قوة وحذق يستحيل وجود مثلهما عند العشائر الأولى.

لقد عرفت العبودية شعوب الشرق قاطبة من الهند والصين إلى مصر ففينيقية فأشور، فالفرس الذين ضموا تحت لوائهم أمم آسيا الغربية. فاختبروا جميع صنوف العبودية في الحقول والمنازل والإبوانات، منذ أيام بابل إلى عهد اليونان. وحالة العبيد متماثلة في كل مكان يتصرَّف السيد بهم بيعاً وحياة وتعذيباً وموتاً، إنما يختلف هذا التصرف باختلاف فطرة الشعوب واستعدادها. فبينما حالتهم في الهند

على أسوأ ما يكون إذا بهم في الصين على هناء نسبي لا يُنظر إليهم كاشياء أو آلات، بل كأناس يحميهم القانون جاعلاً حياتهم في مأمن من الخطر وأعضاءهم سالمة من التشويه. وليس في تاريخهم ثورة واحدة على تجمُّع مئات الألوف منهم حتى اضطرت الحكومة غير مرة إلى اعتقالهم بالجملة، طغمة بعد طغمة، لتفصح مكاناً للمستجدين من أسرى الحروب والجناة، والعصاة الثائرين على الحكم الأعلى. ومع أنهم ملك الأمة المشاع فهم يعيشون في العائلة كوضيع أفرادها، ولكل عبد أن يُعتَق بعد سن السبعين ولكن كثيرين كانوا يابون الحرية لتعلقهم بمواليهم. أما في منشوريا فلم يستعملوا إلا للزينة والأبهة في الأعياد القومية والاحتفالات الرسمية. ثم تدرجت العبودية إلى الرق بالعمل الحرّ، فكان التطور الاجتماعي في الصين غير متخلف عنه في الغرب.

انصدّق أن اليهود «شعب الله الخاص» كانوا يمتلكون بعضهم بعضاً؟ إن الشريعة تبيح لهم استعباد أخيهم اليهودي ستة أعوام، أما غير اليهودي فبعدّ حتى الموت. ولا يفهم ما ورد في إنجيل يوحنا قولهم للمسيح «نحن لم نُستعبد لأحد قط» وهم خاضعون يومذاك للاحتلال الروماني، وقد بيعوا في أسواق أورشليم، واستعبد سلمنصر عشرة أسباط منهم، وظلّ سلطان آخران في قيود أهل بابل سبعين عاماً. وقد جاهرُوا في كتاباتهم بأنهم استُعبدوا سبع مرات في أرض الميعاد. ومن يجهل بيع عيسو بكورينته ليعقوب بأكلة عدس، أي بيع كل حقوقه وقبول العبودية لذرائه؟ ولكن العرب الذين يتسبون إلى عيسو كادوا يمحون بسيادتهم وعظمتهم هفوة السلف الجائع. وقد باع بنو يعقوب أخاهم يوسف للتجار وباعه هؤلاء في مصر فخدمها في السنين الجوائح، وجرّ إليها ذوره فانتهى بهم الأمر إلى الرق. ولم يكن ليطلق سراحهم لولا الضربات العشر الذائعة الصيت. على أن العبودية عندهم

أخف منها عند غيرهم، ترى بين العبد والمولى تبادل الأمانة والرعاية فيحفظان السبب سوياً، وللعبد أن يتزوج وينشئ عائلة وحرية ميسورة بالمال. إن قتله مولاه يُقتل، وإن جرحه أعتق، فإذا انقضت السنة السادسة ورفض أن يتحرر قَدِمَ إلى قضاة الشعب فثقبوا أذنه عند باب سيده. ولقد كان ثقب الآذان رمزاً للعبودية عند شعوب كثيرة. أفتعجبين بعد هذا يا سيداتي، إذا أنا أذريت ما يشعُ في آذانكن من فرائد الدرّ والجوهر وما تهذل منها من الحجارة الكريمة وغير الكريمة، لأحدق في ذلك الثقب الذي يشوّه أذني أنا الأخرى، وأن كفيته عار الأقراط؟ إنني لأتأمله عندكن والمسه في مبتسمة خجلي.



حمل الفينيقيون نظام العبودية مع ما حملوه من الأنظمة والعادات إلى اليونان فجرى هؤلاء عليه وكان العبيد عندهم أنواعاً: نساء لخدمة البيت، ورجالاً للفلاحة والزراعة وخدمة الجيش وسائر الأعمال الخشنة، وصبية متأنقين يكرمون الضيوف ويعدّون المركبات ويرافقون ابن مولاهم في تنزهه وجولانه ويشاطرونه دروسه وألعابه، كأنهم الممالك الصغار في بعض البيوت الشرقية. عوملوا برفق فأحبوا مواليتهم إن غاب أحدهم يوماً تألموا لفراقه وانتظروه باكين، وإن عاد أقبلوا يلثمون يديه ووجهه فرحين، وإذا اكتسبوا ثقتهم بحسن سلوكهم ورجاحة عقلهم أطلق يدهم في ماله وشؤونِه وأنالهم عنده مكانة. قد يكون سبب ذلك أن اليونان كانوا يقدرّون الأعمال اليدوية، حتى أن هوميروس ذكر العمال على مقربة من الأبطال وقال إن الحدادين والمهندسين والتجارين كانوا يُدعون مع الأطباء والعرافين والشعراء إلى ضيافة الملوك. وكان أبناء الأسيرات أحراراً مثل تويسر المولود من أسيرة لم يكن من فرقٍ بينه وبين أخيه أجاكس (المولود من حرّة) ابن

تلامون ملك أجين. ولا عجب والملوك والملكات كل يوم عرضة للأسر والاستعباد. مقدورٌ لم ينجُ منه ولا الآلهة، إذ أن البشر أسروا أبولون ونبطون وفولكان ومارس، فامثل هؤلاء الآلهة وخدموا صامتين حتى رقت بهم يدُ القَدَر.

أما الإسبارطيون فطبعوا العبودية بطابع شدتهم. العبيد هنا ملك الجمهور يلبسون جلود الحيوانات ويُسخَّرون لباهظ الأعمال بصرامة عسكرية، ويُسكَّرون إلى درجة العريضة وفقد الشعور ليرى الأحرار كم يحطُّ الشراب من قدر الشارب ويعرضون عن الخمر ويأنفونها. نحن نُضحكننا حكاية جحا الذي أرسل ابنه يستقي ماءً فأوصاه أن لا يكسر الجرة في الطريق وضربه ضرباً مبرحاً. فاعترض الجار لأن الولد عوقب قبل أن يغادر البيت وقبل أن يرتكب الذنب. فأجاب جحا «وما نفع الضرب بعد كسر الجرة؟ كذلك اعتاد أهل إسبارطة ضرب العبيد ضرباً عاماً لا لإثم جنوا وإنما ليذكروا دوماً أنهم عبيد أقل ما يتهددهم السياط. ويحظر عليهم حتى القوة البدنية فيقتلون القوي منهم، أو يؤذي مولاؤه ضريبة لأنه لم يوقف نموّه. وكثرة الانتصارات والفتوحات مورد عبودية متدفق كان يضاعف عددهم على عدد الموالي سبعا أحياناً فيفتكُ بهم بأساليب مختلفة تخلصاً من شرهم. وروى ثوسديدس أعظم مؤرخي اليونان، أن الموالي سألوا عبيدهم مرة عن الألفين الأشد بينهم بأساً والأقوى شكيمة ليعتقوهم، فقام العبيد بانتخاب ذينك الألفين وتناولهم السادة فزاروا بهم الهياكل ثم اختفوا ولم يعد يظهر لهم من أثر.

وكم من تحالفٍ للعبيد مع أعداء إسبارطة وكم من ثورة جعلت السادة في خطر مقيم. وقد تلغلظوا مرة وكان تهديدهم مخيفاً فاضطر الأحرار إلى طلب الهدنة والمساومة مع الزعيم دريماكس. ثم عادوا

فاغتالوه بعد عقد الاتفاق. فاستأنف الثوار هياجهم وأقاموا له مذبحاً جعلوا عليه هذه الكلمات «إلى البطل المحسن». ويقال إن هيكल أفسس يعود تشييده إلى اتفاق، عقب ثورة، بين الموالي والعبيد. بيد أن تلك القلاقل والاضطرابات وتدخل العبيد في جميع الأعمال بالتدريج قضت على الجمهوريات اليونانية وهيات البلاد للفتح الروماني.

وما كان أشبه حالتهم عند الرومان بهاد عند الإسبارطين فعمدوا إلى العصيان والحروب، وكادت حرب إسبارطس تؤدي إلى خراب روما لولا قتل العبد الزعيم الذي قضى مجداً على اسم روما الممقوتة.

جاء دور التحرير تحت تأثير الفلاسفة فأخذ العبيد يتعاطون جميع أعمال التجارة، وتيسرت لهم المناصب السياسية فارتفع بعضهم ارتفاعاً عظيماً مثل نارثيسس مستشار الأمبراطور كلوديس الذي حرّض على قتل الأمبراطورة مسالينا. واشتهر آخرون بالشعر والفلسفة مثل ترانتسيوس الشاعر الهزلي، والشاعر هوراتسيو، وابكتس الفيلسوف الروافي وغيرهم. وكانت كلما علت مكانة العبيد هبطت الدرجات العليا إذ أن أولئك لم يكونوا يطلبون المساواة للمساواة وإنما يرمون إليها ليصيروا هم سادة ويمسي الموالي لهم عبيداً.

والمدحش في كل هذا أن الفلاسفة لم يقبّحوا العبودية ولم ينكروها بل أقروها مع أن منهم من ذاق مرارتها كديوجنس الكلبي، وابكتس السابق ذكره، وأفلاطون الذي ظلّ أسيراً في مصر وصقلية حتى فداه أحد أصدقائه. وكل ما امتاز به أفلاطون هذا أنه لم يضرب عبده بيده لأن الفلاسفة والشعر رفقاً منه النفس ولطفاً الشعور، فحملاه على أن يوكل إلى سواه تنفيذ العقوبة في مملوكه!

يوصلنا هبوط روما إلى مطلع القرون الوسطى التي تكيفت خلالها الطبقة السفلى تكيفاً خاصاً. لم تبلغ العبودية بل بالعكس بقيت منتشرة في البلدان المختلفة ولها في ليون بفرنسا، وفي روما بإيطاليا، أسواق عامرة بالتجارة الآدمية من السود والبيض. ومرت العصور، فاكشف كولمبس القارة الأمريكية في أواخر القرن الخامس عشر، ولم يُهمل هذا المرفق التجاري بل كانت له أهميته ونظم بعدئذ الإسمان والبرتغاليون المتاجرة ببنى الإنسان تنظيمًا دقيقاً بين العالمين.

لم تلغ العبودية إنما امتازت القرون الوسطى بشيوع الرق الملازم لنظام الإقطاع في أنحاء أوربا. لقد تسايرت العبودية (Slavery, esclavage والرق^(١)) (Serfdom, Servage) في جميع فصول التاريخ فاختلط معناهما والتبسا في اللغات المختلفة وحسبهما الناس مترادفين لمعنى واحد. أما الفرق بينهما فهو أن العبد يملكه سيّد وهو لا يملك شيئاً. وأما الرقيق فملك سيّد يملكه أرضاً مقابل ما يفرضه عليه من ضريبة وخدمة وطاعة قصوى. العبد يتزع من بلده وأهله ويتبع سيده المطلق. أما الرقيق فيظل في ديار جدوده وسيادة المولى تحددها العادة والمصلحة. إذ ما نفع أرض لا يد تعمل فيها؟ فمن مصلحة الشريف أن

(١) لم أجد حتى الآن كلمة عربية لهذا النوع من الرق أو الاستخدام ولعل سبب ذلك أنه لا يكون إلا في البلدان الزراعية. وقد كان شائعاً في بلاد السودان ويطلق السودانيون عليه اسم الرق ولكنهم يطلقون اسم الرقيق أيضاً على العبد المشتري. وكان الملاك في لبنان من الأمراء والمشايخ ورؤساء الأديرة يسمون الفلاحين المقيمين في أملاكهم يعملون فيها شركاء أو مرابمين وسموا في قصة معاوية مع ابن الزبير عبيداً ولعلهم كانوا عبيداً بالفعل.

تعمر الأرض وتنتج له الخيرات. ومن مصلحة الرقيق أن يشتغل في أرض يحبها وله من نتائجها ما يكفي - ولو بالإجهاد - لإعالة بيته وأولاده. فضلاً عن أن الإغارات الخارجية وقلة الأمن في تلك الأيام كانت تقضي بالانتماء إلى سيد عظيم والاحتماء بحماه. والرق في ذاته أنواع. وظل يخف بالتدريج خلال الزمن حتى فقد في فرنسا صفته السياسية وصار مرجع الأمر إلى الملك ولم يبق منه للإشراف غير الميزة الاجتماعية. ولكنهم ظلوا منطلقين في الظلم والإجحاف فاهتاج الشعب غير مرة وهم يقمعون الهياج بقسوة متناهية. ثم زاد واتسع في المرة الأخيرة ورأى العالم الطبقات الاجتماعية تمتزج وتتساوى على دوي سقوط العروش، وانهيار جدران البستيل، وفصل أعناق الملوك في ذلك الزلزال الهائل المدعو بالثورة الفرنسية.

قضت الثورة على الاسترقاق الذي كان ألغى قبلئذ في إنجلترا وظل يُحذَف في دولة بعد دولة، وفي مستعمرة تلو مستعمرة أبان القرن المنصرم. واستفادت أمريكا بدروس العالم القديم واختبارها الشخصي، فألغته الولايات المتحدة سنة ١٨٦٥ والبرازيل سنة ١٨٨٨. وهتف الكتاب والخطباء أن لطخة العار غُسِلَتْ عن جبهة الإنسانية بفضل الثورة الفرنسية وهمة مفكري إنجلترا.

يخيل إلينا نحن أبناء اليوم أن امتلاك الإنسان للإنسان من خصائص الزمن الخرافي، مع أننا نعلم أن النفوس كانت تحصى في عقود البيع بلبنان مع الغنم والخيول وآلات الفلاحة منذ عهد قريب. وأن دولة الممالك المؤلفة من عبيد الأسر ارتفعت إلى أوج الحكم فكان لها جيش من العبيد الغرباء. ثم جاء نابليون الشرق محمد علي باشا فغلبها على أمرها، ونظم جيشاً كبيراً منه فرقة أو فرق بأكملها من السود النوبيين. وكادت المتاجرة بزنج أفريقية تشوّه جيلنا وهي من أفظع

أنواع الاستعباد إذ لا أسر، ولا دين، ولا جريمة تبررها، وما هي غير اقتناص البشر للبشر طمعاً بالمال. لولا أن مطاردتها واكتساحها من أشرف ما تفاخر به بريطانيا العظمى.

ترى ألم يكن للنصرانية والإسلام من أثر في القلوب لتحملها على الرحمة والعطف؟ لا شك في تأثير الدين أياً كان، وإذا أحصيت العوامل الكبرى كان الدين في مقدمتها لتكليف النفوس. وقد انتقى السيد المسيح تلاميذه من الخاملين ومضى ينادي بالمساواة والغفران وحبّ الأعداء لأن الجميع أبناء الله يدعون. وعزّز مذهبه العظيم بمثله في حياته الطاهرة. وصار النصارى يرددون هذا النداء الجميل في الصلوات والاحتفالات تفعل فعله وملا القلوب أملاً وتعزية. على أن الدين المسيحي أقرب إلى النظريات وعلى نقيضه الإسلام فإنه نظري وعمليّ معاً. وجد العبودية عند شعوب سبقت فاقبلها ولكنه لطفها أيما تلطيف. وعلى مقربة من تعاليمه العالية ونصائحه الحكيمة أوصى باليتيم والضعيف والرقيق وكان الطائع الأول النبي العربي ذاته الذي بكى عبده الميت كما يبكي الكريم صديقاً عزيزاً. فكانت حالة العبد في دين محمد من أحسن حالات أمثاله. أما الإعتاق والدعوة إليه فمن أمجد صفحات تاريخ الإسلام.

يرمز المصوّرون إلى العبودية برسم رجل بائس رسف في قيوده ولو أنصفوا ما كان غير المرأة رمزاً. الرجل عبدٌ مرة وهي عبدة مرات. قيمة الرجل في استقلاله النفسي وطموحه إلى بعيد الغايات. والمرأة إن هي أبدت ميلاً إلى الانعتاق من الأوهام القديمة والتحرّر من العادات المتحجرة نظر إليها كفرد شاذ أو كخيال في دوائر الرؤيا، ذلك لأنهم اعتادوا استعبادها ليس بالجور والضغط والتعذيب فقط، بل باللطف والتدليل والتجبّب. وإلا فماذا تعني هذه الحلى وهذه الجواهر؟ بل ماذا

يعني تغني الشعراء بجمال الوجه وملاحة القوام؟ النساء المسكينات يتهن دلالة أن يكن محبوبات لجمالهن، ولو تفكرن قليلاً لأدركن ما في ذلك من معنى التحقير لجميع قواهن، حتى الأنثوية نفسها، ولكفى أن يتقدم إليهن رجل بامتداح حسنهن وحده ليرفضه زوجاً. وهؤلاء هن اللاتي بعد أن يُشترين بالمال والحلى والتملق - وقد عنى سكوتهن قبول نير العبودية والرضى عنه - ينبرين فجأة مطالبات بحقوقهن مناديات بالاستقلال والتحرير. وأنا التي أكتب هذا يشوك الآن ساعدي سوار دار حوله فأنظر إليه وأضحك ولا أزيحه عني. لقد توارث النساء حمل القيود في صورة الحلى حتى عشقتها، إن هي لم تثقل حركتهن لغرض ما وضعن مكانها ما يشير إليها لغير سبب.

تشكون من زواج هذا العصر وتستصفرون الذي يتزوج البائنة ويقبل صاحبها معها بدلاً من أن يتزوج المرأة ويقبل معها بائنتها. ولكن أنظرونه أقطع من زواج يؤدي فيه الرجل مهراً؟ إذا ساء شراء المرأة زوجها فكيف يحسن ابتياع الرجل زوجته؟ الزواج عقد اجتماعي يأتي فيه الشريكان برأس مال حسي ومعنوي: المال والكفاءة الشخصية: فالمال يجعل المرأة مثيلة الرجل، والكفاءة الشخصية تؤهلها لأن تكون زوجة معتبرة وأماً محبوبة. تزعمون، أنتم النظريين المتطرفين، أن صفاتها تكفي لإسعاد رجل نشيط يتكل على جده واجتهاده؟ ألا فادخلوا هيكل أسرار العائلة وقفوا على ما هناك من نكد وويلات أصلها فقر عائلة المرأة! لا أنكر أن الكفاءة الشخصية تفوق المال أهمية، وأن المال لا يدوم إلا حيث تكون الكفاءة، ولكن أوافقون أنتم من أن كل امرأة تنصف زوجها ولا تختلس نتاج جهوده أو بعضه؟ أبى النفس يخاف أن تستعبده المرأة الغنية، فهل هو للفقيرة أقل استعباداً؟ وعلى كل فعييد اليوم كعييد الأمس ليس أمامهم للتحرير من

سبيل غير ذينك السبيلين القبلين : المال والكفاءة الشخصية .



هذه هي الخطوط الكبرى في خريطة العبودية التاريخية، فرغت من تعدادها بانسراح من نفذ من تحت جبل ووقف يتمتع بمحاسن الرياض .

لقد اتفقوا على أن العبودية كانت وانقضت . وأظنتني كتبت منذ هنية أن عصرنا يفخر بإلغاء متاجرة الإنسان بالإنسان . وقد استجمعت فكري للمرة الأخيرة قبل أن ألقي القلم جانباً فتعلمت في حافظتي جميع معاني الأسى ورأيتُ أشباح الذل متجمهرة في رحاب خيالي . كثرْتُ عن أنيابها تهذدني ومدتُ بمخالبها نحوِي لتفترسني . جيشُ عرمرم من أرواح العبودية والرق أخذ يصفق بأجنحته السوداء صارخاً «نحن أحياء نتألم فكيف تذكرون الموتى وتنسينا؟» فدنوت من جماعة وقلت : «من أنتم؟» فصاحوا «نحن نزلنا الليمانات وضحايا الأشغال الشاقة . حجار الصوان تحني ظهورنا وأزير السياط يمزق أجسامنا . ما نحن إلا عبيد إسبارطة» . قلت «وكيف يكفي الاجتماع أبناءه شركم؟ لقد سرتُم في وسطه فكانت الجرائم منكم بعداد الخطوات» فتهدوا وقالوا وتهدهم وكلامهم مقذوفات براكين «ما نحن إلا عبيد إسبارطة» .

وسرْتُ نحو جمع آخر انحنى يشغل والعرق يقطر من ذرات وجهه فصرح «نحن الشعوب المغلوبة وما غرامة الحرب إلا رِق القرون الوسطى» فقلت «وهل من وسيلة أخرى ليستعيض الظافرون عما خسروه من مال ورجال» فهزوا أكتافهم وانحنوا على الأرض متظلّمين «ما هذا إلا رِق القرون الوسطى» .

وتحولتُ إلى جهة أخرى، وإلى أخرى وإلى أخرى، وإن

توجهتُ لأقيتُ أقواماً ينبعث من صدورهم النظم والعويل وتخيم فوقها
الأجنحة السوداء. رجال ونساء، شيوخ وأطفال، مثرون ومعدمون،
عبيد الوراثة، وعبيد العاهات، وعبيد الأمراض، وعبيد الجهل، وعبيد
الأهام، وعبيد الطمع، وعبيد الحاجة، وعبيد الحياء الإنساني، وعبيد
الغرور، وعبيد الكذب، وعبيد الحسد، وعبيد الأهل، وعبيد الأبناء،
وعبيد الغرباء، يزحفون جميعاً من كل ناحية كالجحافل الجرارة وهدير
شكواهم كهدير العباب المتلاطم. فصرختُ جزعاً «من أنتم، من أنتم؟»
والعبيد، جميع العبيد، عبيد الماضي والحاضر والمستقبل، أجابوا
كجوق رهيب «نحن العبودية الدائمة!» قلت «كلا، كلا! لقد أُلغيت
العبودية وأنتم أحرار» إرفعوا أيديكم لا سلاسل فيها: حرّكوا أقدامكم لا
قيود تثقلها! فقالوا: «السلاسل والقيود أقل رموز العبودية هولاً. القيود
في دماننا وأهلنا وأوطاننا. القيود في رغباتنا وحاجتنا. القيود في
بشرتنا» فصرختُ بملء صوتي «أقول لكم أنتم أحرار ولا عبودية في
القرن العشرين؟» فقالوا: «إذا مُحيَتْ من العبودية صورة رُسمت
أخرى، لأن أصل العبودية باق على كر الدهور. نحن العبودية الدائمة.
نحن أودية الحياة المجوفة عند أقدام الرواسي».

واختفت الجماهير في لحظة فوجدتني مُقلبةً صحائف هذا الفصل
وقد وقفتُ أقرأ كلمات الاستهلال «من عجائب الطبيعة وضعها النقيض
بجوار النقيض... ما أقامت ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً...».

المصادر والمراجع

- ١ - مي زيادة في حياتها وآثارها: وداد السكاكيني .
- ٢ - مي زيادة والتوعية الاجتماعية: رسالة ماجستير وفيقة محمود الحايك / ١٩٨٣ .
- ٣ - مي أدبية الشرق والعروبة / محمد حسن عالم الكتب القاهرة .
- ٤ - مي زيادة التوهج والأفول/ روز غريب مؤسسة نوفل - بيروت .
- ٥ - مي زيادة في حياتها وأدبها جميل جبر / بيروت المطبعة الكاثوليكية .
- ٦ - مؤلفات مي زيادة .
- ٧ - ابتسامات ودموع (مخطوطة لمي زيادة) بخطها الأصلي .

الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| المقدمة | ٣ |
| مزاج كتيب | ٨ |
| مي والطبيعة | ١٢ |
| مع النهضة النسائية | ١٧ |
| مي والروح الشرقية عندها | ٢٣ |
| نشاط اجتماعي «ندوة مي زيادة الأدبية» | ٢٧ |
| مي زيادة وتعلقها باللغة العربية والسير بها نحو التطور والنهوض | ٣٤ |
| فن المراسلة عند مي زيادة | ٣٧ |
| جبران في حياة مي زيادة | ٤٦ |
| مي وأسلوبها الأدبي | ٤٩ |
| نحو النهاية | ٥٣ |
| المراثي | ٥٥ |
| مؤلفاتها | ٦٠ |

| | |
|-----|---|
| ٦٣ | مختارات |
| ٦٣ | ابتسامات ودموع - مقدمة الطبعة الثانية |
| ٧١ | الذكرى الأولى |
| ٧٧ | الذكرى الثالثة |
| ٨٣ | أيتها السيدات |
| ٩٥ | الساعة المفقودة |
| ٩٩ | رسالة من باحثة البادية إلى مي زيادة |
| ١٠٦ | الطبيعة المعمرة المدمرة |
| ١٠٨ | بكاء الطفل |
| ١١١ | دمعة على المغرد الصامت |
| ١١٢ | العبودية والرق |
| ١٢٥ | المصادر والمراجع |